الفصل الأول

المدارس الاجتماعية فى فرنسا

أولاً ـ أوجست كونت

ترجع نشأة المدارس الاجتماعية المعاصرة إلى ذلك التاريخ الذى أعلن فيه « أوجست كونت » عن نشأة علم الاجتماع بوصفه علماً مستقلا فى ذاته لدراسة الظواهر الاجتماعية دراسة وضعية أى دراسة علمية شأنه فى ذلك شأن علوم الطبيعة والكيمياء والبيولوجيا التى تدرس ظواهرها فى ضوء مناهج البحث العلمية . ولعل الضرورة التى حدت به إلى إنشاء هذا العلم هى رغبته فى إصلاح المجتمعات المعاصرة له وإنقاذها من مظاهر الفوضى الضاربة أطنابها فى مختلف شئون الحياة الاجتماعية من سياسية واقتصادية وأخلاقية وتربوية . لأنه كان يؤمن بفكرة أساسية مؤداها أن الفلسفة ليست لها غاية مطلقة فى ذاتها ولكنها وسيلة للوصول إلى غايات عملية تخدم أغراض الإصلاح الاجتماعى وتسهم فى الارتقاء بالمستويات الاجتماعية والأخلاقية والدينية . ولذلك نراه ينعى على رجال الإصلاح ويندد باتجاهاتهم ويصف أعمالهم بالتفه والعقم لأن المشروعات التى يضعونها والتنظيمات التى يلجأون إليها لن يقدر لها النجاح ولن تثمر فى تحقيق الغايات المرجوة إلا إذا سبقها تنظيم عقلى لطرق التفكير والعمل واتحاد فى مناهج البحث وتوحد فى مواقف المجتمع إزاء حركة الإصلاح .

ولذلك لما ظهرت مشكلة إصلاح المجتمع الفرنسى وإعادة تنظيمه بعد ثورته الشهيرة ؛ اختلف كونت مع جمهرة المصلحين والمشرعين المعاصرين له . لأن هؤلاء نظروا إلى المسألة نظرة سطحية ، وحاولوا معالجة الأمور بسرعة وطفرة ارتجالية ، أما كونت فرأى أن المهمة شاقة وعسيرة ، وتتطلب مجهوداً طويلا لابد أن يمهد له بوضع فلسفة جديدة للقضاء أولا على مظاهر الفوضى فى التفكير وعلى الاضطراب فى مناهج البحث المستخدمة فى دراسة ظواهر العلوم . أى أنه يمتاز عن معاصريه بأنه ألقى على المجتمع الذى عاش فيه نظرة أوسع نطاقاً وأسبر غوراً فاتضح له مدى الاضطراب العقلى الذى

يتصوره واتضح له أيضًا أن التيارات العنيفة التى تقذف بالمجتمع لا يمكن أن نعزوها إلى أسباب سياسية أو اقتصادية بسيطة ؛ بل هى ناشئة عن الاضطراب الخلقى وفساد معايير الرأى العام ؛ وهذا ناشئ بدوره عن الفوضى العقلية . إذ أن كل ما يعتور التفكير من اضطراب وفساد لابد أن يتردد صداه فى مختلف مظاهر النشاط الاجتماعى . فكأن الجهاز الاجتماعى أو الحركة الاجتماعية ترتكز فى نهاية تحليلها على التفكير الذى يعتبر فى نظره المحور الأساسى الذى تدور حوله كل مظاهر الحياة الاجتماعية لأن المجتمع ليس فى حاجة إلى انسجام المصالح المادية والمنافع المتبادلة فحسب بل هو فى حاجة كذلك إلى اتفاق عقلى ووحدة فكرية وذلك لضمان استقراره وتقدمه .

ودرس كونت مظاهر الفوضى القائمة وكيف يمكن القضاء عليها . أو لاداعى لعرض آرائه فى هذا الصدد فقد درستها بكل كفاية فى كتابى (أوجست كونت وتاريخ التفكير الاجتماعى وتطوره) . ويكفى أن نشير إلى أنه انتهى بعد الدراسة والتحليل إلى أن القضاء على الفوضى العقلية وتحقيق الاتفاق أو الوحدة المنهجية المنشودة إنما يتوقف على إنشاء علم جديد يدرس ظواهر المجتمع دراسة علمية وضعية لأن هذه الظواهر كما تصور لم تخضع حتى عهده للدراسة العلمية شأن ما عداها من ظواهر العلوم المعروفة . وهذا ما حدا به أن يضع فلسفة اجتماعية ترتكز على قواعد المنهج الوضعى وتحقق الوحدة الكلية فى هذا النوع من التفكير .

وطبق كونت منهجه الوضعى على معظم المشاكل التى حفل بها عصره . ففى ميدان المشكلات العامة ، اتضح له أن الوحدة العقلية متى تحققت ، فإنها ستؤدى إلى اتفاق العقول على الحلول المنتظرة للمشاكل المتعلقة بالروابط والعلاقات الاجتماعية . وفى ميدان التربية ، فإن هذه الوحدة ستساعد المسئولين على وضع تربية قومية ترتكز على مبادئ ومعتقدات ومعايير أخلاقية تتفق مع مستوى التفكير العام . وفى ميدان السياسة ستحقق الوضعية مبدأ هامًّا هو وجوب فصل السلطتين الدينية والزمنية وقيام نظم جديدة ثابتة تحقق فكرتى النظام والتقدم . لأنه يرى أن هاتين الفكرتين مرتبطتان أشد الارتباط وبدونهما لا تستقر النظم الاجتماعية . ومن الناحية الجمالية رأى كونت أن الحاجة ماسة إلى ظهور فن جديد يرتبط بالعقائد والأفكار الوضعية ويتفق مع المرحلة التقدمية التى وصلت إليها الحياة الاجتماعية . وفى ميدان الاقتصاد رأى ضرورة تنظيم العلاقات بين رأس المال والعمل

لأن عدم تنظيمها سيؤدى إلى تفتيت الوحدة الجمعية والقذف بالمجتمع إلى مستقبل غامض . وانتهى إلى حقيقة هامة وهى أن إصلاح الظروف الاقتصادية يرتكز فى آخر تحليله على إصلاح الأخلاق . فيجب إذن أن ننظم الأخلاق أولاً ويجب أن نحدد بصفة اجتماعية حقوق وواجبات المواطنين ونقوى فيهم الشعور باحترامها حتى يكون المجتمع بمنأى عن الانحرافات . ومن الناحية الأخلاقية انتهى كونت إلى ضرورة الاعتراف « بطغيان غرائز المشاركة الوجدانية على الدوافع الأنانية » لأن الكمال الأخلاق هو عبارة عن الانسجام الذى يمكن تحقيقه بين جميع الأفراد وفقًا للمبدأ القائل « عش لغيرك » وهذا الكمال لا يمكن أن يتحقق إلا إذا نشأ بينهم تضامن كلى من شأنه أن يخفف من حدة النزعات الفردية ويقوى الروابط الاجتماعية وهذا يتمثل فى ضغط المجتمع ضغطًا خفيفًا على حريات الأفراد . وفى الناحية الدينية انتهى كونت إلى وضع نوع جديد من العبادة هو « عبادة الإنسانية » وهى العبادة التى تتمشى مع مبادئ فلسفته وترتكز هذه العبادة على فكرة الإنسانية التى ينبغى أن تحل فى العالم الوضعى محل « فكرة الله » التى كانت ولا تزال مسيطرة على العالم فالإنسانية فى نظره هى الحقيقة المجردة السامية التى يجب أن نتجه إليها بكل قلوبنا وعقولنا وتتوفر عليها بالعبادة والتقديس . ووظيفة هذه الديانة هى تحقيق وحدة دينية فى العالم بأسره ؛ فكما أن المنهج الوضعى يؤدى إلى الوحدة العقلية ؛ فكذلك الدين الوضعى يؤدى إلى الوحدة الدينية . وبذلك نستطيع أن نقول إن كونت بعد أن انتهى من تحويل العلم إلى فلسفة كرس أخريات حياته فى تحويل الفلسفة إلى دين .

هذه هى أهم النظريات التى انتهى إليها كونت ولا داعى للإفاضة فى شرحها لأنها عولجت بكل كفاية فى مؤلفات سابقة . وقد أحدثت هذه الفلسفة الوضعية حركة فكرية واسعة النطاق تعدت حدود فرنسا إلى معظم أجزاء العالم الغربى لا سيما فيما يتعلق بدعوته إلى إنشاء « علم الاجتماع » فقد انقسم المفكرون حيال ذلك بين مؤيدين ومعارضين . ومن ثم قامت فى فرنسا مدرستان متعارضتان هما مدرستا « إميل دوركايم وجبرائيل تارد » . وتعرف المدرسة الأولى ، بالمدرسة الفرنسية لعلم الاجتماع وقد تزعمها دوركايم وأتباعه أمثال دافى وليفى برول وهوبرت وموس وبوجليه[1] . وقد التزمت هذه المدرسة الأصول

(1) Davy; Levy Bruhl; Hubert; Mauss; Bougle.

العلمية التى وضعها أوجست كونت وحملت من بعده لواء الدعوة إلى إنشاء علم مستقل لدراسة الاجتماع الإنسانى . وتعرف المدرسة الثانية بالمدرسة النفسية ويتزعمها تارد وأتباعه وأشهرهم لاكومب ولوبون . وتعارض هذه المدرسة الدعوة إلى قيام علم الاجتماع وتذهب إلى دراسة ظواهر المجتمع فى ضوء مناهج علم النفس . وبين هاتين المدرستين توجد مدارس كثيرة تذهب مذاهب شتى فى دراسة الظواهر الاجتماعية وسنتكلم عن هذه المدارس بشىء من التفصيل فى الفقرات القادمة .

ثانياً ـ دوركايم ومدرسته

يعتبر « إميل دوركايم » أحد دعائم الحركة العلمية عامة فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وهو منشئ علم الاجتماع الحديث غير مدافع وزعيم المدرسة الفرنسية لعلم الاجتماع التى لا تزال قائمة حتى وقتنا الحاضر . ويرجع إليه وإلى أعوانه وتلاميذه المباشرين دعائم الفضل فى إرساء الدراسات الاجتماعية بمختلف فروعها ومظاهرها على أرسى ما تكون الأسس والقواعد ووصل هو وزملاؤه فى هذا الصدد إلى نتائج وقوانين لا تزال موضع التقدير .

ودوركايم تلميذ مخلص إلى حد كبير لأوجست كونت . فقد التزم هو ومدرسته الأسس والمبادئ التى نادى بها وأضفى عليها كثيراً من الدقة العلمية ونحا بالبحث الاجتماعى نحو الوضعية الصحيحة وبذل جهداً نظرياً يكاد ينفرد به فى تحقيق استقلال علم الاجتماع وتحديد ميدانه ومناهجه والسير بالدراسات الاجتماعية نحو التكامل .

ـ وبدأ دوركايم مجهوده النظرى بالبحث فى مبلغ توفر شروط العلم المستقل فى علم الاجتماع من حيث الموضوع والمنهج وتقنين القوانين .

● فمن حيث الموضوع بذل دوركايم قصارى الجهد فى تشخيص الظاهرة الاجتماعية وإبراز خصائصها النوعية وقرر أنها تمتاز بموضوعيتها وشيئيتها وأنها مزودة بصفة الجبر والإلزام . وهى من نتاج العقل الجمعى تنشأ تلقائياً من اجتماع الأفراد وتبادل وجهات نظرهم واحتكاك مشاعرهم . وهى فى ضوء هذه الاعتبارات تمثل ناحية جديدة فى الإنسان تخالف طبيعته النفسية والحيوية . فإذا كان الإنسان بمقتضى طبيعته النفسية الفردية

يشعر ويتألم ويفكر ويتخيل ، وبمقتضى طبيعته الحيوية يأكل ويشرب وينتقل فى المكان ، فكذلك تفرض عليه طبيعته الاجتماعية أن يعيش فى مجتمع ويتعامل مع بنى جنسه ويخضع لما يخضعون له من نظم وأوضاع يقررها المجتمع . وعلى هذا النحو يكون للإنسان ثلاث طبائع أساسية يجب ألا يختلط بعضها بالبعض الآخر ويجب أن يتعين لكل طبيعة منها علم مستقل يدرسها . ومن ثم قام علم النفس لدراسة الطبيعة الفردية وما يصدر عنها من ظواهر ، وقام علم الحياة لدراسة الطبيعة الحيوية وظواهرها ، وينبغى أن يقوم علم الاجتماع لدراسة الطبيعة الاجتماعية وما يصدر عنها من ظواهر ونظم اجتماعية .

● ومن حيث المنهج رسم دوركايم منهجاً علمياً واضح الأسس والمعالم لدراسة شئون الاجتماع وصحح كثيراً من الأخطاء المنهجية التى وقع فيها أوجست كونت ونبه فى كتابه « قواعد المنهج الاجتماعى » إلى الأسس التى ينبغى أن يلتزمها الباحث فى دراساته وأهمها :

١ — يجب دراسة الظواهر الاجتماعية بوصفها « أشياء » خارجية منفصلة عن شعوره الذاتى .

٢ — يجب أن يتحرر الباحث من كل فكرة سابقة يحفظها عن الظاهرة حتى لا يقع أسيراً لأفكاره الخاصة .

٣ — يجب على الباحث ألا يقيم وزناً لظروفه الذاتية فى بحث ظواهر الاجتماع .

٤ — ينبغى دراسة الظواهر والنظم للكشف عن طبيعتها ونشأتها وتطورها والعلاقات المتبادلة فيما بينها والوصول إلى القوانين المنظمة لها . ويجب صياغة هذه القوانين بدقة لأنها هى التى تكون مادة العلم ، وبفضل دقتها وضبطها يتعين مركزه بين سائر العلوم . وقد تصاغ هذه القوانين فى صور كمية تعبر عن سير الظاهرة بالأرقام والرسوم البيانية أو فى صور كيفية تحدد الخواص والصفات العامة فى قضايا كلية .

والخطوات المشار إليها تدلنا على أن الدراسة فى علم الاجتماع يجب أن تكون دراسة تاريخية مقارنة . وتبدو أهمية التاريخ لأنه ميدان ملاحظة الظواهر وهو فوق ذلك حقل التجارب . ولذلك كانت الدراسة التاريخية لازمة وضرورية لفهم أصول النظم الحاضرة ووضع النظم المستقبلة على أساس سليم . وهذه الضرورة هى التى تدعونا إلى دراسة نتائج أو ثمرات الماضى كما نلاحظها فى عصورنا . بيد أن طبيعة الظواهر

الاجتماعية التى نلاحظها تجعلنا لا نقتصر على الدراسة التاريخية بل من الواجب أن نلجأ إلى طريقة جديدة فى البحث الاجتماعى وهى الطريقة الإحصائية . وقد طبق دوركايم هذه الطريقة فى دراسته لظواهر الانتحـــار . وهذا يدلنا على عناية دوركايم بقواعد المنهج ومحاولته تدعيم طرق الدراسة والبحث .

● ومن حيث تقنين القوانين فقد انتهى دوركايم من دراساته إلى طائفة غير يسيرة من القوانين الاجتماعية : فى الانتحار ، وفى الدين ، وفى الأسرة ، وفى المعرفة الإنسانية . ولم يترك أية ناحية من النواحى التى درسها إلا وصل بصددها إلى القوانين العامة المفسرة لنشأتها وطبيعتها وتطورها . وكان دائمًا يحاول الكشف عن الوظيفة الاجتماعية التى يحققها النظام أو الظاهرة موضوع الدراسة . وأحيل القارئ إلى الفصل الذى عقدته عن « دوركايم » فى كتابى « تاريخ التفكير الاجتماعى » للوقوف على الموضوعات التى درسها والنظريات التى انتهى إليها . ومنها ندرك أنه يرجع إليه الفضل فى إرساء علم الاجتماع الحديث على أقوى ما تكون الدعائم فلا غرو إذا لقبه المؤرخون بأبى علم الاجتماع المعاصر .

هذا ، وقد حمل أتباع دوركايم وتلاميذه المباشرون رسالة أستاذهم وتابعوا دراساته وتأسوا خطاه ، ولم يتركوا أية ناحية من نواحى المجتمع إلا عالجوها فى ضوء منهج أستاذهم مع قدر من الأصالة الشخصية . وهذه ميزة كبرى للمدرسة الفرنسية الاجتماعية . فقد حققت هذه المدرسة كلية التفكير الاجتماعى وجعلت من علم الاجتماع علما تكامليًّا . إذ نلاحظ أن علماء المدرسة قد ربطوا بين مختلف الدراسات الإنسانية وبين علم الاجتماع ، فعالجوا الظواهر المورفولوجية والأنثروبولوجية والجغرافية والدينية والسياسية والاقتصادية والقانونية واللغوية والنفسية والفنية وظواهر الحياة فى ضوء المنهج الاجتماعى .

وأشهر من درس المورفولوجيا الاجتماعية ثلاثة من أقطاب المدرسة هم : « بوجليه »[١] فى كتابه عن نظام الطوائف و « هلفاكس »[٢] فى كتبه المورفولوجيا الاجتماعية ، والطبقة العاملة ومستويات المعيشة ، وتطور الحاجات عند طبقات العمال و « جورفتش »[٣]

(1) Bouglé; Essai Sur le Regime de castes.

(2) Halbwachs : Morphologie Sociale La Classe ouvrière et les niveaux devie; L'Evulotion des besoins.

(3) G. Curvitch; Essais de Sociologie.

فى دراساته المورفولوجية التى ضمنها كتابه « دروس فى الاجتماع » .

وأشهر من كتب فى الأتنلوجى والأنثروبولوجى سوسيال : « ليفى برول »[١] وكان الأخير مديراً للمعهد الأتنلوجى الملحق بجامعة باريس[٢] والعلامة « بول ريفت » الذى أنشأ متحف الإنسان وهو متحف أنثروبولوجى . وقد اتجه بعض أنصار هذه المدرسة إلى دراسة الحالة الاجتماعية فى المستعمرات وحمل لواء هذه الدراسة العلامة « مونيه »[٣] وتخصص العلامة — جنب — فى دراسة العادات الشعبية الدارجة ومبلغ تأثيرها فى ظواهر الاجتماع[٤] .

ومن الذين ربطوا بين الجغرافية والاجتماع العلامة « سيون J. Sion » فى كتابه (الفلاحون فى إقليم نورماندیا الشرقية) والعلامة « ديون A. Dion » فى كتاب له عن « التكوين الزراعى فى فرنسا » — والعلامة « جورو P. Gourou » فى كثير من بحوثه المتصلة بهذا الموضوع .

وأهم من اشتغل بالاجتماع الدينى العلماء « هوبرت وموس وباستيد وكالوا ومارسل جرانت »[٥] ويعتبر المفكر الأخير تلميذاً مخلصاً لأستاذه دوركايم . فنظرياته تعتبر فيضاً من تعاليم الأستاذ .

ودرس العلامة « موريه[٦] » الناحية السياسية فى كتابه « من العشائر إلى الإمبراطوريات » ودرس بوجليه وفرانسوا سيمياند وهلفاكس[٧] الناحية الاقتصادية .

---

(1) Mauss; Les variations Saisonnêres dans es Sociétés Eskimo.

(2) Institut d'Ethnologie de l'Université de Paris.

(3) René Maunier; Essai Sur les groupements Sociaux; Sociologie Coloniale; Melanges deSociologie Nord Africaine.

(4) Van Gennep : Manuel de Folklore Fraçais; Le Folklore de a Bourgogne; Tabou et totemisme à Madagascar.

(5) Hubert; Mauss-Melange d'Histoire des Religions.
Bastide Sociologie Religieuse.
B. Caillois; le maythe et l'homme ; L'Homme et le Sacré.
M. Granet; La Pensée Chinoise.

(9) A. Moret; Davy. Des Clans aux Empires.

(7) Bouglé; La methodologie de F. Simaiand et la Sociologie.
F. Simiand; Cours d'Economie Politique — Le Salaire des ouvriers — La Methode positive en Sc. economique.

ووجه لفيف من قادة الحركة الاجتماعية مزيد عنايتهم إلى دراسة الاجتماع القانونى وعلى رأس هذه الطائفة « فوكنيه وداف وبابيه وراى وليفى وجورفتش » . واهتم « فوكنيه » بدراسة الجريمة[١]

وأشهر من درس الجماعات البدائية العلامة « ليفى برول »[٢] الذى تحرر إلى حد كبير من تعاليم أستاذه دوركايم وجمع حوله عصبة من أنصاره وسموا أنفسهم « أصحاب مذهب كونت الجديد Neo Comtisme وأهم بحوثه « الوظائف العقلية فى المجتمعات المتأخرة والعقلية البدائية والنفس البدائية — والقوى الطبيعية والخارقة فى نظر البدائيين » وبجانب اهتمامه بهذه الناحية عنى بدراسة الناحية الأخلاقية ووضع دعائم علم الاجتماع الأخلاقى وذلك فى كتابه « الأخلاق وعلم الطباع » .

وفى ميدان الدراسات اللغوية وصل علماء المدرسة الفرنسية إلى مكانة ممتازة لم يصل إليها بعد علماء آخرون . وكان على رأس المشتغلين بهذا الميدان العلماء « دى سوسير وميبه وكوهن »[٣] .

ومن أنصار الدراسات النفسية العالمان « بلوندل وليفى برول »[٤] وفى ميدان الفن نخص بالذكر العلماء « لوكيه ولالووجيو »[٥] .

وعلى هذا النحو لم يترك علماء المدرسة الفرنسية الاجتماعية أية ناحية من النواحى

---

(1) Fauconnet; La Responsbilité.
G. Davy; La Foi Jurée — Le Droit, L'idéalisme et L'expereince
A. Bayet; La Science des faits moraux.
Jean Ray; Le Structure logique du code civil Français.
E. Levy, Le Fondement du droit; la division Socialistse du droit Gurvitch; La Declaration des droits Sociaux — La Sociologe du Drouit : L'idée du droit Social.

(2) Levy Bruhl; La Mentalité Primitive — Les Fonctions mentales — L'Experience m mistique chek les Primitiues — La marale et la So do moeurs.

(3) De Saussure : Cours de Linguistique General.
Meillet; Comment Se Changent Les mots.

(4) Blondel; Le Suicide.

(5) Luquel; L'Art et la Religion — L'Art primitive — Lalo; L'Art et Lavie Sociale — L'Expression de la vie dans l'art.
Guyau l'ar au point de Vue Sociologique.

الإنسانية إلا درسوها فى ضوء المنهج الاجتماعى ، وبذلك جعلوا من علم الاجتماع علماً « تكاملياً » كما سبق الإشارة . وهذا ما يدعونا إلى تسمية هذه المدرسة بالمدرسة التكاملية فى الدراسات الاجتماعية .

وقد تعدت أعمال هذه المدرسة حدود فرنسا وكان لها أبعد الأثر فى الفلسفة الاجتماعية عند الإنجليز والأمريكان . ويمكننا أن نقول إن علماء الرعيل الأول فى أمريكا تتلمذوا مباشرة على تعاليم كونت ودوركايم وأتباعهما . وكان تأثرهم بهؤلاء أكثر من تأثرهم بهربرت سبنسر .

ثالثاً ـ المدرسة النفسية

إن التحمس الذى بدأ من دوركايم ومدرسته فى تدعيم الحركة الاجتماعية العلمية أثار حفيظة بعض العلماء المناهضين لقيام علم الاجتماع بوصفه علماً مستقلا فى ذاته ؛ وأعطى الفرصة لاشتداد المنافسة واحتدام الجدل العلمى بين الفريقين . ومن ثم قامت فى فرنسا مدرسة معارضة لمدرسة دوركايم . وهى مدرسة قوية وعنيدة يتزعمها العالم النفسانى « جبرائيل تارد G. Tarde » .

كان « تارد » (١٨٤٣ ـ ١٩٠٤) من كبار رجال القانون الفرنسيين شغل وظيفة مستشار مدة طويلة ثم انتقل مديراً لإدارة الإحصائيات الجنائية وعندما أحيل إلى المعاش عين أستاذاً فى « كلية فرنسا » . وهذه الوظائف التى شغلها تفسر لنا مبلغ اهتمامه بالدراسات الجنائية والمباحث المتصلة بالجريمة ودوافعها . وكتب فى هذا الصدد بحوثاً كثيرة أهمها كتابان هما : الجريمة (١٨٨٦) ، وفلسفة الجزاء (١٨٩٠)[1] .

ثم ساهم فى الحركة العلمية التى شغلت أذهان معاصريه . وكانت تدور حول تعيين مراكز العلوم بالنسبة لبعضها البعض وتحديد ميادينها تقرير مناهج بحوثها . وكان من الطبيعى بحكم تخصصه أن ينصب نفسه مدافعاً عن علم النفس . فنقد علم الحياة ونقد الداروينية وهاجم ما ذهب إليه أوجست كونت ودوركايم بصدد استقلال علم الاجتماع واستقلال ظواهره . وذهب إلى القول بأن علم الاجتماع لا يصح أن يكون له وجود مستقل .

---

(1) Tarde : La Criminalite; La philosophie Panale, (1890).

وعلى افتراض تحقيق مثل هذا الوجود فإنه يجب أن يكون فرعًا من علم النفس « Une Inter psychologie » وأنكر طبيعة الظاهرة الاجتماعية ونادى بأن هذه الظاهرة إن هى إلا ظاهرة فردية من صنع الأفراد لأن المجتمع الذى تنسب إليه هذه الظواهر هو فى حقيقة الأمر مؤلف من أفراد . ومن ثمة فلا داعى لقيام علم جديد لدراسة ظواهره . ودافع عن آرائه فى كتب كثيرة أجدرها بالذكر « قوانين التقليد (المحاكاة) ، والمنطق الاجتماعى ، والقوانين الاجتماعية ، والرأى العام والشعب »[1] . وتعتبر هذه الكتب ردًّا مباشراً على القضايا العلمية التى قررها « دوركايم » فى مؤلفاته الاجتماعية وخاصة ما جاء فى كتابه (قواعد المنهج الاجتماعى) فيما يتعلق باستقلال الظاهرة الاجتماعية وخواصها الذاتية وضرورة دراستها بوصفها أشياءاجتماعية«Commedes Choses Sociales» فقد رد (تارد) على هذه القضية ومثيلاتها بأنه لا يعترف بشخصية الظاهرة الاجتماعية ، ولا يقر لظواهر اللغة والدين والقانون وما إليها من النظم الاجتماعية وجوداً ذاتيًّا ولا يعترف بموضوعيتها بل يراها جميعًا مظاهر نفسية تعتمد فى نشأتها وتطورها على التقليد والمحاكاة وبمجهودات الأفراد .

ويبدأ تحليله السيكلوجى بقوله إن جميع أنواع السلوك إنما ترجع إلى الترديد والتكرار « Répétition » فهو من القوانين الأساسية التى تنتظم ظواهر الكون . ففى عالم المادة يتخذ صورة الذبذبات والتموجات ، وفى عالم الحياة يتخذ صورة الوراثة ، وفى عالم النفس يتخذ صورة التقليد والمحاكاة . فالفرد يحاكى نفسه أولا ثم يحاكى الآخرين . ويعبر عن هذه القضية بقوله « إن المحاكاة تنتقل من الداخل إلى الخارج . أى أنها تبدأ فى المجال الفردى ثم تنتقل إلى المجال الاجتماعى . وهى الحالة النفسية المعبرة عن العلاقة الاجتماعية التى تربط الأفراد بعضهم ببعض . وتتم المحاكاة عادة بطريقة لاشعورية ولذلك نراه يشبه الحياة الاجتماعية بحالة التنويم المغناطيسى فهى حياة ترديدية وتخديرية لا يشعر بها الأفراد لأنهم يحاكون بعضهم بعضًا بطريقة تلقائية غير شعورية .

وحياة هذا شأنها لابد أن تؤدى إلى الثبات والجمود . بيد أن تارد يدخل عنصراً نفسيًّا جديداً لتصحيح نظريته . وهو عنصر التجديد والابتكار « Invention »

---

(1) Tarde. Les Lois de l'Imitation; La logique Sociale; Les lois Sociales — L'Opinion et la foule. (1901).

فقد يستيقظ الفرد فجأة من هذا السبات العميق على فكرة جديدة . ومن ثم تنتقل هذه الفكرة من فرد إلى آخر عن طريق المحاكاة والتقليد الذى بفضله تنتشر الظواهر والنظم الاجتماعية الجديدة التى يبتكرها الأفراد . لأن الأفراد عادة يحاكون من هم أسمى وأعلا شأناً فى السلم الاجتماعى .

ويخضع التقليد لنوعين من العوامل :

أولاً : عوامل منطقية تتلخص فى محاكاة الأفعال النافعة ومظاهر السلوك المستحدثة وذلك بعد التبصر . ويصادف الفرد فى هذا السبيل نوعاً من المعارضة وعدم التأييد « Opposition » لكل ما هو جديد وسرعان ما ينظم نفسه لقبوله ويتكيف لمحاكاته « Adaptation » .

ثانياً : عوامل غير منطقية وتتلخص فى اندفاع الفرد تلقائياً وبصفة غير شعورية إلى المحاكاة والتقليد ولا سيما إذا كان يحاكى من هو أرقى منه فى المنزلة الاجتماعية .

ويذهب تارد وأتباعه فى تفسير القضايا التى أشرت إليها إلى أن الحياة تستهدف من حين لآخر لظهور بعض النابهين وذوى الشأن يتمثلون فى الأنبياء والملوك والقادة والعظماء والنابهين وهؤلاء يأتون ابتكارات جديدة . فيأخذ الناس بها وينقلونها عنهم وينساقون فى تيارهم . وبترديدها وتكرارها ترسب هذه الأمور فى الحياة الاجتماعية وتصبح جزءاً من التراث الاجتماعى . ويستشهد أصحاب هذه النظرية على صحة ما يذهبون إليه بما حدث فى تاريخ المجتمعات . فالناس يسيرون على دين ملوكهم : الأمراء والأشراف يقلدون الملوك ، وكبار الملاك وثراة القوم يقلدون الأمراء والنبلاء ، والفلاحون يقلدون طبقة الملاك ، والضباط يقلدون قادتهم ، والجنود يقلدون ضباطهم . والعمال والأجراء يقلدون الطبقة البورجوازية . وفى ضوء هذا التحليل السيكلوجى يمكن تفسير انتشار العادات والتقاليد وآداب السلوك وقوالب التفكير والعمل والأوضاع الاقتصادية والسياسية والأسرية وما إليها . فإنها جميعاً عبارة عن ابتكارات قام بها بعض الأفراد ثم تناقلها الآخرون ورسبت بعد ذلك فى الحياة الاجتماعية بفضل الأتباع والمقلدين وأصبحت سمة العصر وجزءاً من التراث الاجتماعى ويتناقلها الأفراد جيلا بعد جيل . ويضرب أصحاب هذه النظرية أمثلة بظهور رمسيس ملك مصر وإسكندر الأكبر والسيد المسيح والرسول

محمد وتابليون ومن إليهم ممن كان لهم دعائم الفضل فى التجديد والابتكار وتطوير الحياة الاجتماعية وتقليد الأفراد لهم ومحاكاتهم فى حركاتهم وأعمالهم .

وينتهى تارد من هذا التحليل السيكلوجى قائلا : إن الجهاز الاجتماعى برمته يرتكز على التقليد « ذلك النهر الفياض الذى لا ينقطع تياره » .

ويمكننا أن نلخص الدعائم التى ترتكز عليها النظرية النفسية فى القضايا الآتية :

١ — إن الحياة الاجتماعية تخضع لقانون المحاكاة العام .

٢ — إن العمليات والعلاقات والظواهر الاجتماعية إن هى إلا تقليد الأفراد للنابهين من ذوى الشأن . ومن ثم فإن الجهاز الاجتماعى يتمثل فى حياة ترديدية ترتكز على التقليد والمحاكاة .

٣ — إن تجديد الفرد وابتكاراته هى القوى الديناميكية فى الحياة الاجتماعية ومبعث نشاطها وتطورها .

٤ — لابد من تدخل جانب الإرادة الفردية لأنها عنصر ضرورى فى الانتقال من حالة التعارض إلى القبول والتكيف .

٥ — إن التراث الاجتماعى وما ينطوى عليه من ظواهر ونظم اجتماعية وأوضاع متعلقة بالعادات والعرف والتقاليد ومظاهر السلوك والتفكير والعمل تنتهى فى آخر تحليلها إلى ابتكارات فردية رسبت فى البنيان الاجتماعى بفضل التقليد والمحاكاة .

٦ — إن المجتمع ليس له وجود ؛ والموجود أفراده وما يظهر فى جوه من ظواهر وتيارات ونظم إن هى إلا حالات نفسية متبادلة بين الأفراد (Inter psychologic) وبين عقولهم (Inter cerbrale) وتتخذ طريقها فى الحياة الاجتماعية عن طريق التقليد والتجديد والمعارضة ثم القبول فالتكيف .

نقد المدرسة النفسية :

كانت هذه النظرية هدفًا لانتقادات كثيرة بالرغم مما يبدو فى ظاهرها من بعض وجوه الصحة . وإليك أهم هذه الانتقادات :

أولاً : أثار تارد ومدرسته أن الظواهر الاجتماعية ترجع فى نهاية تحليلها إلى ظواهر نفسية فردية وهى من صنع الأفراد وأن المجتمع ليس له وجود والموجود أفراده .

وقد صرفت هذه الشبهات الأفراد إلى حد ما عن دراسة علم الاجتماع وظنوا أنه فرع من فروع الدراسات النفسية . بيد أن هذه الشبهات على قوتها التى تبدو فى الظاهر مردودة على أصحابها وتدل على تفكير خطير . فقد تحدث فى المجتمع أمور لا يصح أن ننسبها إلى أفراد معينين وذلك لأنها تنشأ من علاقات الأفراد فى حالة الاجتماع وتبادل وجهات نظرهم وتفاعل أفكارهم واحتكاك مشاعرهم وتوحد مواقفهم . هذا بالإضافة إلى ما يحيط بهم من ظروف طبيعية وبيئية وتاريخية تصهرهم جميعاً فى بوتقة جمعية وتؤدى إلى قيام عقل جديد للجماعة يوجهها ويرشدها إلى ما ينبغى عمله . وهذا العقل مستقل عن الأفراد وله منطق خاص ومظاهر سلوك تختلف عن مظاهر السلوك الفردى . وهو ما اصطلح علماء الاجتماع على تسميته « بالعقل الجمعى » . فكل ما يصدر عن هذا العقل لا يصح أن ننسبه إلى الأفراد ولو أنهم هم الذين خلقوا هذه الشخصية المعنوية أو القوة الروحية تحت ظروف خاصة وبشروط معينة .

وفى هذا الصدد يلجأ دوركايم إلى أمثلة مادية ليزيد الموضوع وضوحاً فى أذهان المبتدئين فى الدراسات الاجتماعية[1] .

فيقول : نحن نعلم أن الماء مكون من جزء من الأوكسجين مع جزأين من الأيدروجين وذلك تحت درجة حرارة خاصة وضغط معين وشروط معروفة . ولكننا نجد أن خواص المركب الكيميائى الناتج من ذلك وهو الماء تختلف كل الاختلاف عن خواص كل من العنصرين اللذين كانا سبباً فى وجوده . فمثلا الإرواء والسيولة والتدفق وهى خواص الماء لا توجد فى أى عنصر من العنصرين وليست أيضاً خاصة لعنصر منهما مضافة لخاصة فى العنصر الآخر . وإنما هى خواص نشأت ذاتياً من اتحادهما كيميائياً وتفاعلهما تحت الظروف المعروفة . فكذلك الحال بصدد الظواهر الاجتماعية . فهى ليست من صنع فرد ولا صنع بضعة أفراد ولكنها نتيجة لتفاعل الأفراد جميعاً فى حالة الاجتماع . فخواص هذه الظواهر لا يمكن أن تكون صفة أو خاصة فى فرد أو بضعة أفراد ولكنها خواص المركب الجمعى وعناصر العقل الجمعى «Conscience Collective» .

ويضرب مثلا ماديا آخر بالبرونز الذى يتألف من القصدير والرصاص والنحاس بنسب خاصة وتحت ظروف كيميائية معينة . فخواص البرونز تختلف عن خواص المعادن

(1) Durkheim; Régles de la Methode Sociologique. p.15 sqq.

التى دخلت فى تركيبه وهى خواص نشأت عن الاتحاد الكيميائى بينها جميعًا . بحيث فقد كل معدن خواصه الذاتية وانصهر فى وحدة جديدة . فكذلك الحال بصدد الحياة الاجتماعية عندما تنشأ من اتحاد الأفراد وتفاعلهم . فالعناصر الثلاثة تشبه الأفراد الذين يتكون منهم المجتمع ؛ والبرونز يشبه المجتمع ؛ وخواص البرونز تشبه خواص الظواهر الاجتماعية التى تصدر عن المجتمع . فالحياة الاجتماعية إذن من طبيعة جديدة مغايرة للطبائع النفسية والفردية . وهى فى ظهورها بهذه الصفة تشبه فى بعض الوجوه نشأة الكائنات الحية من مواد معدنية وعضوية . وهذا ما دعا دوركايم إلى القول بأن ظواهر هذه الحياة (الظواهر الاجتماعية) من خلق عقل جديد هو العقل الجمعى وثمرة من ثمراته .

ثانيًا : حمل تارد حملة بليغة على دوركايم بصدد قضيته الشهيرة التى مؤداها أن الظواهر الاجتماعية تنطوى على صفة الجبر والإلزام ؛ قائلا إن الإلزام يجعل الأفراد أرقاء فى المجتمع لا حول لهم ولا قوة . وبذلك يقضى المجتمع المزعوم على شخصيات الأفراد ويردهم إلى مستوى العجماوات لأن موقف الفرد بالنسبة للمجتمع هو موقف المسود بالنسبة للسيد . وقضية هذا شأنها تنتهى فى آخر تحليلها إلى تأليه المجتمع لأن دوركايم يجعل منه معبوداً جباراً يفرض سننه وقوانينه على الأفراد ويحدد لهم قوالب السلوك والعمل . وهذه الحياة القائمة على الجبر والإلزام تجعل الأفراد يعيشون تحت ضغط دائم وإرهاب مستمر فيسيطر على حياتهم الكبت والخضوع وتنتابهم العقد وتصبح حياتهم مملة ثقيلة ومجردة عن السعادة .

والحق أن هذا النقد ينطوى على هجوم لا مبرر له وينطوى كذلك على مغالطة فى تفسير قضية دوركايم على حقيقتها . لأن الإلزام الجمعى الذى يقول به دوركايم مظهر من مظاهر الضبط الاجتماعى ورقابة المجتمع على أفراده للحرص على قواعد البنيان الاجتماعى والبعد به عن الهزات والانحرافات التى قد تعصف بدعائمه . فهو إلزام مفيد اجتماعيًا لأنه يستهدف مصالح الأفراد بوصفهم أفراداً ومصالح المركب الجمعى باعتباره باعتباره الكل الحاصل من اتحاد الأفراد وتفاعل علاقاتهم . فالنظم والقوانين لم توضع إلا لتحقيق التوازن فى الحياة الاجتماعية وتهذيب وردع كل من تحدثه نفسه بالخروج عن الأوضاع المرسومة والحدود التى قرر المجتمع عدم تجاوزها . ويجب أن تعلو هذه النظم

فوق إرادة الأفراد لأنها وضعت لتحقيق الصالح العام وليست لتحقيق مصالح فردية ذاتية . هذا وخضوع الفرد للنظم الاجتماعية ليس خضوعاً مطلقاً يقضى على حريته وشخصيته ولكنه خضوع محبب للفرد الاجتماعى . فليس هناك عداء بين المجتمع والفرد ولكن هناك اتحاداً وتجاوباً . وهذا هو السبب فى استقرار النظم فى نفسية الأفراد عن رضاء واطمئنان . هذا ويستطيع الفرد أن يجدد ويغير فى القوالب الاجتماعية . فالأفراد ليسوا آلات صماء بصدد ما يفرضه المجتمع ولكنهم عناصر إيجابية يستطيعون إلى حد ما أن يشكلوا الظاهرات . بيد أن هذا التدخل لا يكون إلا فى الحدود التى يسمح بها المجتمع ؛ وهذه الحدود تختلف فى مرونتها باختلاف قوة الظواهر الاجتماعية ومبلغ أصالتها فى البنيان الاجتماعى . فهى ضيقة النطاق وعديمة المرونة بصدد الظواهر الدينية والأخلاقية والمسائل القومية ؛ وواسعة النطاق كثيرة المرونة فى بعض مظاهر الحياة العامة . ومن هنا استمدت النظم الاجتماعية وما تنطوى عليه من جبر وإلزام مشروعيتها . وتتأكد هذه المشروعية فى نفوس الأفراد لعمومية الإلزام وخضوعهم له بنسب متكافئة . لأنه لا يقع على فرد أو بضعة أفراد بالذات ؛ وإنما هو إلزام عام بالنسبة للكل . ومع وجود الإلزام وتحققه فى واقع الأمر ؛ غير أننا لا نكاد نشعر به أو نحسه . وذلك نظراً لعوامل التربية والوراثة والتكيف والتمثيل الاجتماعى التى خففت من وقعه وجعلته يرسب فى التكوين الاجتماعى للأفراد فى حالة كمون . بيد أن عدم شعور الأفراد بالقوى الكامنة فى الظاهرة الاجتماعية لا يجعلها خلوا منها . وقد شبه دوركايم الضغط الاجتماعى بالضغط الجوى فى عالم الطبيعة . فكما أن الأفراد لا يكادون يشعرون بقوة الظاهرة الطبيعية مع وجودها ؛ فكذلك لا يحسون الضغط الاجتماعى إلا فى حالة خروجهم عما يرسمه المجتمع من قواعد وأوضاع .

ثالثاً : يقرر تارد أن الظواهر الاجتماعية إن هى إلا حالات نفسية ترديدية أساسها التقليد والمحاكاة وتجديد النابهين وذوى الشأن . وهذه قضايا فاسدة لا تنهض حقائق الأمور دليلا على صحتها . ويبدو فسادها من نواح كثيرة :

(١) لا تفسر لنا هذه النظرية نشأة الظواهر الاجتماعية تفسيراً يطمأن إليه ولا تكشف عن طبيعتها . وما تذهب إليه هو تفسير أحد العوامل المؤثرة فى انتقال بعض الأوضاع الاجتماعية ومظاهر السلوك الاجتماعى من جيل إلى جيل . وذلك هو التقليد

الاجتماعى وليس التقليد الفردى الذى يقول به تارد . لأن الفردَ فى واقع الأمر يقلد المجتمع ولا يقلد حالة نفسية فردية . وذلك لسبب بسيط وهو أن الفرد لا يسمع ولا يبصر إلا فى المجتمع ؛ ولا يشعر ولا يفكر بدون المجتمع . فكل ما يصل إليه عن طريق الإيحاء أو يذهب إليه عن طريق التقليد والمحاكاة عبارة عن انعكاس لأضواء الحياة الاجتماعية على فكره وشعوره .

(ب) إن أصحاب هذه النظرية يضربون أمثلة بظهور بعض الأنبياء والملوك والقادة ويشرحون ما كان لهم من فضل فى الابتكار والتجديد . فهل كانت الإنسانية فى فجر نشأتها خلوا من كل تنظيم اجتماعى وكانت بصدد انتظار النابهين وذوى الشأن حتى ينشئوا فيها النظم والأوضاع الاجتماعية ؟ ؟ لقد فات أصحاب هذه النظرية أن هؤلاء وغيرهم ظهروا فى مجتمعات متطورة وعاشوا فى ظل نظم وأوضاع اجتماعية وتاريخية . وما ينسب إليهم من فضل هو أنهم استحدثوا أموراً وأشياء تعبر عن الاتجاهات الجمعية السائدة ولا يمكن تفسيرها فى ضوء المفاهيم التى يقولون بها .

(حـ) إن منطق هذه النظرية يصور لنا حياة الأفراد كالقطيع الذى يقلد رائده تقليداً أعمى . مع أن التاريخ يدلنا على أن الأنبياء والزعماء كثيراً ما استهدفوا للسخرية والتهكم والإيذاء . وكثيراً ما كانت حياة الملوك والقادة شاقة وعسيرة ومليئة بالفتن والمؤامرات والثورات : فكيف يستقيم كل ذلك مع ما تذهب إليه النظرية النفسية من أن الأفراد كانوا يقلدون هؤلاء تقليداً أعمى .

(د) إن ابتكارات الفرد ترجع فى واقع الأمر إلى مستوى ثقافته . والفرد مدين للمجتمع بهذه الثقافة . فالشخص النابه المبتكر هو تعبير ثمن مبلغ ما وصلت إليه الحياة الاجتماعية من تحضر وارتقاء . وهو تلميذ المجتمع وصنيعته .

(هـ) إن التجديد لا يعتبر كذلك إلا إذا كان معبراً عن ميول واتجاهات اجتماعية ، فقد يحدث أن تنتشر اتجاهات ورغبات جديدة فى جو المجتمع وتكون وظيفة النابهين هى ترجمة هذه الرغبات والتعبير عنها . أى أن الفرد النابه إنما يمتاز عن غيره بإدراكه طبيعة الأمور فى الحياة الاجتماعية ، واستطاعته أن يقرأ ما يتجه إليه المجتمع ويريده ، أى أنه يمتاز بقوة الحساسية الاجتماعية . فليس الزعيم أو المبتكر إلا مترجماً عن رغبات

مجتمعه ومعبراً عن مشيئته . وما يصادفه الزعيم من نجاح وتوفيق إنما يرجع إلى ارتياح الأفراد له لأنهم يجدون فيه مرآة صادقة تعكس رغباتهم وميولهم وتصور آلامهم وآمالهم .

نهاية المدرسة النفسية :

لا شك أن الانتقادات التي عرضناها وهنت من شأن النظرية النفسية فأصابها الذبول وانصرف كثير من أتباعها ومريديها عن جوهر النظرية واتجهوا إلى دراسة نفسية الشعوب والجماعات كما فعل « جوستاف لوبون » . أما المخلصون من تلاميذ المدرسة فقد عملوا على نشر مذهبهم في فرنسا وخارجها وأصبحت لهم مدارس قوية في إنجلترا وأمريكا سنعرض لها في حينها ؛ ودافعوا عن دعائم النظرية وحملوا لواءها إلى آفاق بعيدة . وأشهر هؤلاء اثنان من رجال العصر البارزين هما :

١ — ألفرد فوييه «A. Fouillée» (١٨٣٨ — ١٩١٢) صاحب نظرية « قوى الأفكار Idées Forces » . فالفكرة في نظره قوة تنزع إلى فرض نفسها والخروج إلى حيز التنفيذ . فهي ليست مفاهيم غامضة لا حياة فيها ؛ ولكنها قوة ديناميكية حية تدفع إلى العمل والتطور . والمجتمع في نظره وحدة نفسية متطورة أساسها الأفكار النفسية المتبادلة بين الأفراد . فإن هذه الأفكار عبارة عن قوى مختزنة خرجت إلى الفعل . أي أن المجتمع خلق نفسه بدافع من العوامل النفسية الداخلية وقوى الأفكار الكامنة في نفوس أفراده . ويحمل هذا المفكر على نظريات دوركايم حملات قوية مبرهناً على فسادها في ضوء تعاليم أستاذه تارد ومبادئه . وأشهر مؤلفاته في هذا الصدد : العلم الاجتماعي المعاصر ؛ العناصر الاجتماعية للأخلاق[1] .

٢ — لاكومب «P. Lacombe» (١٨٣٩ — ١٩١٩) . نقد دوركايم نقداً عنيفاً في سلسلة من كتبه أهمها : المنهج الاجتماعي عند دوركايم ، والتاريخ بوصفه علماً[2] .

وفي هذا الكتاب الأخير اعتبر التاريخ علماً موضوعياً وليس مجرد وصف الحوادث والتعليق عليها . ووصل إلى تحديد موضوع علم الاجتماع وميزه عن موضوع التاريخ بأن

(1) A. Fouillée : La Science Sociale Contemporaine. (1910).
Elements sociologique de la morale. (1905).

(2) P. Lacombe; La Methode Sociologique de Durkheim; L'Histoire Considerée Comme Science.

قرر أن موضوع الاجتماع هو كل ما يتعلق بقيام النظم ووظائفها «Institionnel» أما موضوع التاريخ فهو دراسة كل ما يتعلق بالحوادث «de l'événementiel» وبالرغم من هذا الاتجاه العلمى فى تقرير طبيعة الحقائق الاجتماعية ، غير أنه انحرف انحرافاً ظاهراً عند دراسة وتحليل ظواهر الاجتماع . فقد أرجعها كما أرجعها أستاذه إلى التقليد والمحاكاة . فهى فى نظره مجرد حالات نفسية ناشئة عن حاجات الإنسان وعلاقاته . وهى فى قيامها وانتشارها تعتمد على المقدمات والدوافع السيكلوجية التى نادى بها تارد . وقد أسرف (لا كومب) فى هذا الاتجاه إسرافاً أدى به إلى مهاجمة دوركايم هجوماً عنيفاً لا سيما فى بحوثه المتأخرة محاولا هدم فلسفته وتفنيد ما تنطوى عليه من قضايا علمية .

والملاحظ أن المتأخرين من أنصار هذه المدرسة وهم كثيرون اشتغلوا بالدراسات القانونية وخاصة الناحية الجنائية . وتتجه بحوثهم إلى الكشف عن الأصول الاجتماعية والنفسية لفكرة القانون ومدى عموميته ومبلغ تأثيره فى نفسية الجماهير ومدى خضوع الأفراد لفكرة الإلزام والجزاء . ويبحث بعض أنصار هذه المدرسة فى الجريمة ومقوماتها وعلاقاتها بالشخصية والعوامل النفسية المهيئة لارتكابها والظروف الاجتماعية التى تبررها . ويعلق هؤلاء أهمية كبرى على الدوافع النفسية وسيكلوجيا الفرد لأنهم لا يؤمنون بقيمة العوامل الاجتماعية ويعتبرونها عوامل ثانوية أو مضافة لا تبلغ فى تأثيرها مبلغ الدوافع النفسية . والملاحظ أن التشريعات الفرنسية المتعلقة بتقرير الجزاءات والعقوبات قد تأثرت إلى حد كبير بالبحوث النظرية التى قدمها رجال هذه المدرسة فى ميدان الجريمة . فقد خفت وطأة هذه الجزاءات وزالت الوحشية التى كانت تسيطر على فكرة الجزاء والتشريعات الجنائية عند الفرنسيين . هذا ، وقد نادى بعض أنصار هذه المدرسة بضرورة إصلاح السجون كما نادوا بضرورة تعزيز الحرية القضائية وناشدوا رجال القضاء أن يرجعوا فى دراسة القضايا الجنائية إلى ضمائرهم باعتبارهم اجتماعيين ونفسيين أكثر من رجوعهم إلى نصوص القانون باعتبارهم موظفين رسميين .

رابعاً ـ المدرسة الميكانيكية « الآلية »
فى تفسير الظواهر الاجتماعية

مدرسة طريفـــة فى اتجاهها ؛ يحاول أنصارها تفسير الظواهر الاجتماعية بعوامل آلية محضة «Mechanique» شأن ما كان سائداً فى غضون القرنين ١٧ و ١٨ بصدد تفسير الظواهر الإنسانية عامة بالمؤثرات التى تفسر فى ضوئها ظواهر العالم المـــادى : ويدخل فى نطاق هذا الاتجاه كل النظريات والفروض التى تفسر الظاهرات الاجتماعية فى ضوء مفاهيم ومصطلحات علوم الرياضة والميكانيكا والطبيعة والكيمياء . ومع اختلاف وجهات نظر أصحاب هذه المدرسة ، فإنها تندرج كلها تحت اسم واحد وهو المدرسة الآلية «Mechanique» أو مدرسة « الميكانيكا الاجتماعية » وقدم أنصارها مجموعة من الدراسات تعتبر محاولة علمية لإنشاء ما يمكن تسميته « بعلم الاجتماع الميكانيكى » . وقد حاول هؤلاء الاستفادة من تقدم الميكانيكا والفيزياء فى دراسة المجتمع وتحليل الظاهرات الاجتماعية بالطريقة ذاتها التى تحلل بها عناصر المادة . واستعاروا المصطلحات والقوانين الميكانيكية لتفسير وتحليل مبادئ الحياة الاجتماعية والدعائم التى يرتكز عليها قيام المجتمع الإنسانى . وذلك مثل قوانين التجاذب والتنافر والثقل والضغط والحركة وما إليها .

وتتلخص آراؤهم بصفة عامة فى أن المجتمع مملكة آلية داخل نطاق الطبيعة الكلية . والأفراد الذين يكونون المجتمع عبارة عن أجسام مادية وينطوون على قوى آلية معينة . ولما كانت قوانين الرياضة والميكانيكا والفيزياء وقضاياها هى التى تفسر خصائص الحركة والقوى والمادة ، أمكن تطبيق تلك القوانين والقضايا على دراسة الإنسان والمجتمع . ويكفى عندئذ نقل المصطلحات والقوانين العلمية المعروفة فى مجال العلوم المشار إليها إلى مجال الظواهر الإنسانية ؛ اجتماعية وفردية .

وفى ضوء هذه الاعتبارات فإن المجتمع ـ فى نظر أصحاب هذه المدرسة ـ نظام جرمى عناصره كائنات بشرية . وترتبط هذه الكائنات فيما بينها بجاذبية متبادلة ؛ وقد تنشأ بين بعضها عوامل التنافر كما يحدث ذلك بين ذرات المادة فى الطبيعة الكلية .

والفرد فى الكون (أو فى المجتمع) حدث آلى يعمل ويتحرك وفق نظام آلى شأن أية حركة ميكانيكية . وإذا حللنا حياة هذا الفرد نجد أنها سلسلة من مظاهر حركية : حركة الدم وحركة الأفكار وحركة الميول . وحيث تقف الحركة يحدث الموت الذى يشبه تماماً توقف ماكينة الساعة أو أية آلة صناعية . وإذا حللنا المجتمع الإنسانى العام نجده ينطوى على ثلاث حقائق[1] :

١ – الكائن البشرى وهو نظام جرمى أساسه التجاذب والتنافر بين قوى وأفكار وجهود .

٢ – المجتمع وهو نظام جرمى أساسه التجاذب والتنافر بين الأفراد .

٣ – الجنس الإنسانى وهو نظام جرمى أساسه التجاذب والتنافر بين الجماعات (أى بين الشعوب والدول) .

ويفسر بعض أصحاب هذه المدرسة العلاقات الاجتماعية تفسيراً رياضيًّا . فاجتماع الأفراد عملية « جمع » ؛ وتفاعل علاقاتهم وتبادل مشاعرهم عملية « ضرب » ؛ وظاهرة تقسيم العمل الاجتماعى وتنوع الوظائف وتفرع التخصصات عملية « قسمة » ؛ ومظاهر الصراع بينهم وقيام الحروب والثورات عملية « طرح » لأن مثل هذه المظاهر تنطوى على استنفاد وضياع لجزء كبير من الطاقة المزودة بها الأفراد والمجتمعات .

وتفسر هذه المدرسة التنظيم السياسى والاجتماعى وظاهرة الزعامة والسيادة فى المجتمع بأنها نتائج حتمية لضبط « الذرات والخلايا الاجتماعية » أى « ضبط الأفراد والجماعات وتنسيق العمل الاجتماعى وممارسة قوة الضبط والقهر الاجتماعى . والنظم السياسية والإدارية داخل المجتمع تشبه فى سيرها ودقتها نظام الموازين الحاسبة (العادة) «Counter balances»

وقد اجتهد بعض أنصار هذه المدرسة فى محاولة الوصول إلى علم كمى عام يطبق على مختلف ظواهر العلوم لقياسها . لأن قياس الظواهر واستخدام الطرق الرياضية والهندسية هو أفضل المناهج التى توصلنا إلى الحقائق الصائبة . فكل علم يجب أن يكون رياضيًّا . وبدون التطبيقات الرياضية ؛ فإن الكائنات البشرية تعيش كالبهائم

(1) Sorokin; Les Theories Sociologiques Contemporaines p. 21. sqq.

والحيوانات المفترسة التى لاتدرى من أمر حياتها شيئاً (كما يقرر العلامة Weigel) وهذا الاتجاه يفسر لنا المحاولات العلمية التى بذلت للوصول إلى مقاييس أو وحدات للعد والقياس والإحصاء فى علوم الاجتماع والنفس والأخلاق .

«Sociometrica; Psychometrica; Ethicometrica» .

وكان هذا الاتجاه واضحاً فى معظم النظريات الفلسفية التى نادى بها كبار فلاسفة القرن ١٧ (ديكارت ليبنتز واسبينوزا ومالبرانش) .

ولم تكن هذه المدرسة فرنسية النشأة كما يبدو من عرضها فى هذا الجزء من الكتاب ؛ ولكنها كانت منتشرة انتشاراً واسع النطاق بين مفكرين كثيرين فى مختلف بلاد أوربا وأمريكا . وبعض هؤلاء فلاسفة والبعض علماء ومهندسون مارسوا الرياضيات والميكانيكا والطبيعة ؛ والبعض الآخر باحثون معجبون بطرائق هذه العلوم ومبلغ تقدمها وإمكان تطبيق مضامينها ومفاهيمها وقوانينها على الإنسان والمجتمع .

ومن الرواد الأول لهذه المدرسة « جورج باركلى G. gerkeley (١٦٨٥ — ١٧٥٣) كما هو واضح فى نظريته عن الجاذبية الأخلاقية والثبات الاجتماعى « أن القوى الدافعة إلى الميل عن مراكز التجمع إنما تبدو بوضوح فى النزعات الأنانية التى تدفع بالأفراد إلى التوحد والعزلة . بينما تتطابق الغرائز الاجتماعية مع القوى الدافعة إلى الميل نحو المركز . لأنها تدفع الأفراد إلى أن يعيشوا مجتمعين . ويبقى المجتمع فى حالة ثبات إذا كانت القوى الدافعة إلى الميل عن المركز أقوى من القوى الدافعة إلى الميل نحوه » ويشبه باركلى « السكان » فى الميكانيكا الاجتماعية « بالكتلة » فى علم الطبيعة « والتجانس واللا تجانس » بين الأفراد فى الميكانيكا الاجتماعية بنظرية الأبعاد فى الطبيعة[1] .

وساد هذا الاتجاه فى الفكر الاجتماعى فى القرن الثامن عشر وطلائع القرن ١٩ وتأثر به بعض الفلاسفة المعروفين باسم « الانسكلوبيديين » فقد حاول سان سيمون تفسير الظاهرة الاجتماعية فى ضوء قانون « نيوتن » فى الجاذبية . ومن بعده حاول « شارل فوريه » تفسير « التاريخ » تفسيراً ميكانيكياً .

وكان أوجست كونت فى أول عهده متأثراً بهذا الاتجاه حتى وهو بصدد إنشاء

(1) Berkeley — The Principles of Moral Attraction.
Sorokin — Contemporary Sociological Theories (1956). p. 1.

علم الاجتماع . فقد قسمه إلى شعبتين : مباحث الستاتيكا (أى مباحث الاستقرار والسكون والتوازن الاجتماعى) ومباحث الديناميكا (أى مباحث الحركة والتطور والتقدم الاجتماعى) واللفظان مستعاران من علم الميكانيكا . كما أنه سمى علم الاجتماع فى أول الأمر بعلم الطبيعة الاجتماعية على غرار العالم البلجيكى « كتليه ! Quételét » الذى سمى أحد مؤلفاته بهذا الاسم .

ومنذ النصف الأخير من القرن ١٩ زاد عدد المفكرين المتأثرين بهذا الاتجاه : منهم فلاسفة ومنهم علماء ومهندسون مارسوا الرياضيات والطبيعيات ؛ ومنهم باحثون معجبون بطرائق هذه العلوم ومبلغ تقدمها وإمكان تطبيق مضامينها ومفاهيمها وقوانينها على الظواهر الإنسانية والاجتماعية . وأمكن تصنيف بحوث هؤلاء فى أربع مجموعات يغلب على كل مجموعة التأثر بعلم معين . فالمجموعة الأولى تأثرت بالطبيعيات وعلى رأسها العلامة « كارى Carey » وتأثرت المجموعة الثانية بالميكانيكا ويمثلها « بارسيلو وهارت Barcelo-Haret » وتأثرت الثالثة بمباحث الطاقة ويمثلها « سلفاى وأزوالد وكارفر Carver — Ostwald — Solvay » . وتأثرت المجموعة الرابعة بالرياضيات وخير من يمثلها « بارتو وكارلى Carli — Pareto » .

ولا بأس من أن نعرض نماذج لأفكار هذه المدرسة بصفة عامة .

من أول رواد هذه المدرسة العالم الأمريكى « هنرى كارى Henry Carey » (١٧٩٣ — ١٨٧٩) وهو من علماء الرعيل الأول فى علم الاجتماع الأمريكى . ظهر اتجاهه الفيزيقى فى كتابه « مبادئ العلم الاجتماعى Principles of Social Science » وقد نشر الجزء الأول من هذا الكتاب عام ١٨٥٨ قبل أن ينشر هربرت سبنسر كتبه (المبادئ الأولى عام ١٨٦٢ ، ومبادئ البيولوجيا عام ١٨٦٤ ؛ ومبادئ علم الاجتماع عام١٨٧٦ ؛ ومبادئ الأخلاق عام ١٨٧٩) وبالرغم من اتجاهه الفيزيقى فهو يعتبر من الدعائم الأولى للمدرسة الاجتماعية الوضعية على غرار أوجست كونت لاسيما فيما ذهب إليه من تفسير الظاهرات بعوامل اجتماعية واعتبار علم النفس قائماً على أسس علم الاجتماع ؛ وظواهره إنما تفسر فى ضوء الحقائق الاجتماعية وليس العكس[1] .

---

(1) Sorokin; Contemporary Sociological Theories p. 13.

يقول «كارى» إن المجتمع إنما يتألف من أفراد كما تتألف الأجسام من ذرات . فالفرد هو ذرة المجتمع . والتعاون بين الأفراد شكل من أشكال قانون التجاذب العام بين الذرات . والفرد ينجذب بالضرورة نحو أشباهه تطبيقاً لقانون الجذب العام الحاصل فى العالم المادى .

وتوزيع الأفراد على المدن وزيادة سلطة الدولة أو ضعفها رهين بالقوى الجاذبة والقوى الطاردة على غرار ما يحدث فى الميكانيكا . ويفهم من هذا الكلام أن (كارى) يقرر مبلغ تأثر الأفراد فى اتجاهاتهم بقوة المجموع وبالقوى الاجتماعية الكامنة فى الوجود الجمعى . والضغوط التى تمارسها هذه القوى على مظاهر سلوك الأفراد .

ويقول كارى فى الطبيعة . . . «تزداد سرعة انتقال الحرارة بين جسمين كلما زاد الاختلاف فى حرارتهما» هذا القانون يطبق بوضوح فى الحياة الاجتماعية «فكلما زادت الفروق بين الأفراد والجماعات زادت معها درجات الرغبة فى التعاون والترابط والتجارة» ففى المجتمعات الزراعية البسيطة نجد الترابط ضعيفاً ؛ ولكنه يشتد ويقوى حيثما يشتمل المجتمع على الفلاحين والعمال والتجار وأصحاب المهن الحرة والموظفين ويأخذ كل منهم نصيبه فى النشاط الاجتماعى . وهذه هى المضامين التى ألمع إليها دوركايم فيما بعد بصدد كلامه عن قانون التضامن الاجتماعى وتقسيم العمل .

والتقدم فى نظره «حركة» والحركة تحدث حرارة ؛ والحرارة تنتج من قوة الترابط والتجمع .

ويطبق كارى قانون «المادة لا تفنى» فى المجال الاجتماعى فالإنتاج والاستهلاك فى نظره مجرد تحويل أو تشكيل المادة من شكل لآخر . إذ يتحول الفحم المستخرج من باطن الأرض إلى حرارة وإلى دخان ورماد . ويتحول القمح واللحم والفواكه والخضراوات إلى عضلات بشرية وأعصاب وهذا كله فى نطاق عملية رتيبة واحدة وهى التغير الكيفى للمادة دون زيادة أو نقص كمى . وكلما تحولت المادة من شكل لآخر استخدمنا قوة أو كما نقول استهلكنا طاقة وفى هذا السبيل لابد أن ننشئ طاقة أخرى[1] والقيمة الاقتصادية فى نظره مظهر من مظاهر الكون «Inertia» والمنفعة الاقتصادية

(1,2) Sorokin (Ibid) p. 14, 15.

تشبه تماما « كمية التحرك » «M. Momemtum» والإنتاج تغيير فى أشكال المادة ، والتجارة تغيير فى مكانها وعلى هذا النحو يسير العلامة « كارى » فى المماثلة بين الظاهرات الاجتماعية وظواهر الطبيعيات والميكانيكا محاولا تطبيق القوانين الطبيعية والميكانيكية على ظواهر الإنسان والمجتمع وقد نقل العلامة (سوروكن) عن (كارى) بعض القوانين والقضايا التى تدل على هذه المماثلة وتقربها لذهن القارئ . وعرضها بطريقة علمية طريفة[1] .

ومن أبرز مفكرى أوربا الذين تأثروا بهذا الاتجاه « فورنوف وهاريت وبارسيلو » «Voronoff; Haret; Barcelo» وهؤلاء جميعًا متفقون فى أسس الدراسة ومنهج البحث : المجتمع مكون من أفراد ، والفرد هو العنصر الأول فى تركيب المجتمع ، وهو شبيه بالنقطة التى لا تقبل التجزئة . والبيئة الاجتماعية هى بمثابة «حقل قوى أو ساحة قوى Champ de Force » وتخضع هذه البيئة لكل التصورات والقوانين الميكانيكية . وما يقال عن قوانين اجتماعية لا يتعدى أن يكون مظهراً من هذه القوانين الكلية .

ومن أمثلة القوانين الاجتماعية المستمدة من النظريات الميكانيكية التى وصل إليها (هاريت وبارسيلو) « أن زيادة الطاقة الحركية فى الفرد تعادل نقص الطاقة الكامنة » و « مجموع الطاقة عند فئة اجتماعية معينة وفى زمن معين يساوى مجموع طاقتها منذ بدايتها مضافاً إليه مقدار العمل الذى قامت به هذه الفئة وكل المؤثرات والقوى الخارجية التى أثرت فى الأفراد أو الجماعة فى غضون المدة الفاصلة بين الزمنين » .

ومن أعلام هذه المدرسة المهندس البلجيكي (سلفاى Solvay) وهو الذى أنشأ معهد علم الاجتماع ببروكسل ، يقول : إن الظاهرة الاجتماعية ليست إلا تفاعلا من ثلاثة عناصر : عضوى ونفسى ولا عضوى «Organic; Psychic; Inorganic» وأهمها جميعاً العنصر الأخير الذى يقوم فيها بوظيفة ودور رئيسى والحياة كلها ليست إلا تحولا فى الطاقة . والحياة الاجتماعية ليست سوى منشط من مناشط الطاقة . وعلم الاجتماع

(1) Vonoroff; Foundations of Sociology (Russ. 1909).

Haret; Mechanique Sociale (1910).

Barcelo; Essais de méchanique sociale (Paris 1925).

هو علم الطاقة الاجتماعية أو طبيعة (فيزياء) اجتماعية . ووظيفة هذا العلم هو أن يرد مجموع الظواهر البيولوجية والاجتماعية إلى المبادئ الجوهرية فى علمى الطبيعة والكيمياء .

والإنسان والمجتمع كلاهما « جهاز طاقة » وتاريخ الإنسان أو المجتمع هو تاريخ تحولات الطاقة . ويخضع هذا التاريخ للقوانين الميكانيكية للطاقة ولا سيما قانون « تحقيق أقصى قدر من الطاقة بأقل مجهود » ، وفى ضوء هذه الاعتبارات يفسر ظواهر الإنتاج والتداول والتوزيع والاستهلاك ، وكذلك الظواهر السياسية[1] .

ونجد تحليلا طريفا لهذا الاتجاه عند المفكر الألمانى (وهلم أزوالد «W. Ostwald» ١٨٥٣ – ١٩٣٢) . يقول إن مباحث الطاقة تقدم للعلوم الاجتماعية عدة مبادئ أساسية ولكنها لا تستطيع أن تقدم كل المبادئ والقوانين التى تحتاج إليها هذه العلوم . ويعرض العلامة سوروكن لطائفة من هذه المبادئ[2] التى يمكن فى ضوئها تفسير ما يمكن تفسيره من ظواهر الاجتماع .

١ – كل حادثة اجتماعية أو كل تغيير اجتماعى أو تاريخى ليس فى نهاية تحليله سوى تحويل طاقة .

٢ – ليس خلق الحضارة من وجهة نظر مباحث الطاقة سوى تحويل الطاقة الخام إلى طاقة نافعة . وكلما كان مقدار الطاقة النافعة الناتج من هذا التحويل كبير ، زاد تقدم الحضارة ويسوق سوروكن المثل الآتى : إذا كان القنديل البدائى يحول الطاقة الكيميائية إلى طاقة ضوئية بنسبة ٣٪ والمصباح الأكمل أو الأكثر تقدماً يستطيع أن يعطى ١٥٪ أو أكثر ؛ فإن استبدال هذا الأخير بالقنديل البدائى يعتبر نوعاً من التقدم .

٣ – الإنسان جهاز تحويل لجميع أنواع الطاقة .

٤ – إن ظاهرة « المطابقة للبيئة Adaptation » ليست سوى مبلغ الاستفادة الممكنة من الطاقة الخام وتحويلها إلى طاقة نافعة .

٥ – المجتمع ؛ بوصفه مجموع الأفراد الذين يعملون معاً لتحقيق غايات مشتركة ؛

---

(1) Solvay; Formules d'introduction à l'énergetuque physio et psychosociologique.
Solvay : Scientific Positive Politics of Energetics.

(2) Sorkin; Contemporary Sociological Theories p. 21 sqq.

يعتبر نظاماً يهدف إلى أفضل وأحسن الاستفادة بصدد استغلال وتحويل الطاقة الخام إلى طاقة نافعة وحيث تحل الفوضى ومظاهر الانحلال فى العلاقات المتبادلة بين الأفراد محل الترتيب والتنظيم تتشتت الطاقة وتضيع سدى ويستحيل على المجتمع استغلالها استغلالا كاملا ؛ وليس هناك مبرر لوجود المجتمع سوى تحقيق هذه الغاية ؛ فإذا حال المجتمع دون ذلك ووقف عقبة كأداء أصبح وجوده عبثاً .

٦ — تقوم اللغة والقانون والاقتصاد والتجارة والعقوبات وأجهزة الدولة والحكومة ومختلف الأجهزة الثقافية وما إليها بوظائف يمكن التعبير عنها بمفاهيم الطاقة . لأن غاية هذه النظم جميعاً العمل على الاستفادة من الطاقة الخام وتقليل الضائع فى عمليات التحويل : ولم تحقق الحضارة فى مراحلها البدائية بلوغ هذه الغاية على نحو مرض ؛ لأن وسائلها كانت مرذولة وخشنة فقد كانت وسائل إقرار النظام الاجتماعى قائمة على العنف والقهر والإرهاب . وهذه الوسائل لا تحقق تقدماً وتنطوى على إفناء نصيب كبير من الطاقة . وعندما تقدمت الحضارة ؛ أصبحت وسائل الضبط الاجتماعى أقل عنتا .

فإن السبب الذى يسيغ قيادة أية دولة ؛ ويجعل لها قيمة ويكسبها المشروعية هو العمل على تحويل الطاقة لمصلحة كل رعاياها عن أحسن وجه وبأفضل الوسائل الممكنة . وبدون تحقيق هذه الغاية ليس ثمة مسوغ لقيامها .

وفى ضوء هذا التحليل تعتبر مظاهر الثروة والنفوذ تركيزاً للطاقة النافعة ؛ وادخارها يحقق هذا الغرض . كما أن مشروعية الملكية الفردية مرتبطة بكونها وسيلة لاستغلال الطاقة الخام على أحسن وجه . فإذا لم يتحقق هذا الغرض لمصلحة المجتمع بطلت مشروعية وجودها .

إن العلم فى نظره هو أفضل الأشكال الجوهرية لاستغلال الطاقة والانتفاع بها . ولهذا السبب فهو ركيزة الحضارة « إنه الدماء الزكية والجذور العميقة لكل ثقافة » والعظماء من العلماء والمخترعين إنما يكرسون جهودهم لتحقيق هذه الغاية . وكذلك فإن الفائدة العظمى للتربية والمدارس وكل المؤسسات التعليمية ومراكز البحث العلمى ، هى تجويد تحويل الطاقة الفكرية الخام وزيادة رأس مال العلم ؛ والعمل على سعة انتشاره . ولذلك من الضرورى أن ينعم هؤلاء بالحرية الفكرية وحرية البحث إذ بدونها لا يمكن تحقيق الغرض الفذ المشار إليه .

وفى ضوء القضايا التى أشرنا إليها يحلل المفكر « كارفر Carver » الحضارة والعمليات والعلاقات الاجتماعية[1] وكذلك المفكر «Winiarsky» فى تحليله للتجمعات البشرية والظواهر السيكلوجية والعلاقات الجنسية (بين الذكر والأنثى)[2] .

ومن علماء فرنسا المحدثين المتأثرين بهذا الاتجاه عالم الاجتماع المعروف « جورفتش » لا سيما فى دراساته للأشكال الاجتماعية فقد أطلق على التجمعات الإنسانية الصغيرة لفظ Microphysique Sociale تشبيهاً لها بالعناصر الطبيعية البسيطة والميكانيكية الأولى كالكهارب والبروتونات ، وأطلق على التجمعات الإنسانية الكبيرة لفظ Macrophysique Sociale تشبيهاً بالعناصر والطاقات المعقدة .

ومن أبرز المتأثرين بهذه المدرسة « ريمون أرون Raymond Aron ولا سيما فى دراساته عن ظواهر الحرب . فقد عقد مماثلة بين تعاقب الحروب وتسلسلها وبين التفاعلات المتسلسلة التى تحدث فى عناصر المعادن وخاصة عنصر الأورانيوم وذلك فى بحثه «Les Guerres Chaine» :

وقد جاوز بعض الباحثين المحدثين طريقة التشبيه والمماثلة إلى محاولة وضع علم اجتماع يرتكز على الطبيعة والميكانيكا . فقد ألمع الباحث « جون ستيوارت » فى مقال له عن « أسس الطبيعة الاجتماعية » إلى ما تمارسه هذه المباحث من آثار هامة فى الحياة الاجتماعية وخاصة التحولات والتغيرات التى ترتبت على التقدم الصناعى والتغير التكنولوجى والمخترعات الحديثة . ولا شك أن زيادة المعرفة العلمية لطبيعة الكون لابد أن تؤثر بعمق فى التصورات الإنسانية والمفاهيم المتصلة بظواهر الإنسان والمجتمع وكذلك فى الفلسفة الشعبية لدرجة أن أصبحت الدراسات الإنسانية والديموجرافية والسياسية والاقتصادية والنفسية والاجتماعية مرتبطة أشد الارتباط بمفاهيم الطبيعة والميكانيكا فعدد السكان يقابل عدد الذرات ، ودرجة النشاط الاجتماعى تقابل درجة الحرارة ، والرغبات والميول تقابل الشحنات الكهربائية ، والإنتاج وعناصره يقابل الكتلة . وما إلى ذلك .

وبعد هذا العرض والتحليل ، فما هو نصيب هذه الآراء من الصحة ؟ ؟ حقاً إن

---

(1) Carver; The Economy of Human Energy (1924).

(2) Winiarsky; La Methode mathématique dans la Sociologie et dans L'Economie. (La Revue Socialiste 1894).

المجتمع فى نهاية تحليله يتركب من أفراد والأفراد مزودون بطاقات ويخضعون للزمان والمكان . وهذه الظواهر خاضعة بصفة أساسية للقضايا والقوانين التى تدرس فى علوم الرياضة والطبيعة والكيمياء والميكانيكا . ولا شك أن معرفة هذه القوانين والقضايا هامة وضرورية . ولكن هل تستطيع مثل هذه المباحث أن تكشف وتبرز خصائص الحقائق الاجتماعية وتفسرها تفسيراً علمياً بدون تعسف . حقاً إن المجتمع مملكة صغيرة داخل مملكة الطبيعة بالإجمال ويمثل كوناً من الأكوان . وهذه الأكوان والممالك يتداخل بعضها فى بعض وقد تتحد مراكزها ، وقد تنفرد وتتباعد محيطاتها ونطاقاتها فبجانب الطبيعة اللاعضوية وهى ميدان العلوم المشار إليها ، توجد طبيعة تشاركها فى بعض الخصائص وتنفرد عنها ببعض المميزات وهى الطبيعة العضوية وفوق هذه وتلك توجد الطبيعة فوق العضوية التى تشارك مع الطبيعتين المشار إليهما وتنفرد عنهما بما يميزها .

إننا لا ننكر أهمية الدراسات الرياضية والميكانيكية ولا ننكر النتائج الهامة التى وصلت إليها ومبلغ انعكاس هذه النتائج فى حياة الإنسان والمجتمع . فقد أصبحت هذه المباحث هى عماد الحضارة والمدنية الحديثة ، والتقدم الصناعى والتكنولوجى مدين لها . وبالتالى فإننا لا نستطيع أن نعزل التحولات والتغيرات الاجتماعية الجذرية التى صاحبت التقدم التكنولوجى عن التقدم العلمى فى مباحث الرياضيات والميكانيكا والطبيعة والكيمياء وغيرها من العلوم التجريبية . فأساليب الإنتاج وسبل المواصلات ونظم الإسكان ومستويات المعيشة وأنماط الحياة الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية والأسرية ونظم الحكم والإدارة واتجاهات الفن وأساليب الأدب والمصطلحات اللغوية وطرق التفكير ، كل ذلك تأثر تأثيراً واضحا بتقدم العلوم المشار إليها . ولا شك أن المرحلة التى تصل إليها هذه العلوم فى تقدمها تؤثر تأثيراً بالغاً فى مقومات الفلسفة المسيطرة على العقول ، والنظريات والاتجاهات الفكرية السائدة ، والتطبيقات الاجتماعية المرتكزة على الكم النظرى .

ولكن مهما يكن من شأن وقدر هذه المباحث ، فإنها لا تقوى على تفسير الحقائق الاجتماعية تفسيراً متكاملا يطمأن إليه . وعلى حد تعبير العلامة « سوروكن » إذا قلنا إن الإنسان حيوان ذو عينين ، فإن هذا التعريف ينطوى على نصيب من الصحة ، ولكنه لا يعتبر تعريفاً جامعاً مانعاً : إذ لا يفرق بين الإنسان ، وبين غيره من الحيوانات التى لها عيون أيضا . وكذلك حين ندعى أن الظواهر الاجتماعية خاضعة للقضايا الميكانيكية

والطبيعية تنطوى دعوانا على نصيب من الصحة دون أن يكون هذا التقرير معبراً عن الحقيقة فى كليتها وشمولها .

هذا إلى أن أصحاب هذا الاتجاه وقعوا فى مغالطات لا تخفى ؛ فمثلا إذا كان من الممكن تفسير سرعة التجمع السكانى بقانون الجاذبية ، فإن مثل هذا القانون لا يفسر لنا انحلال المدن ونهايتها . وإذا كانوا يفسرون الجريمة بأنها طاقة ضائعة ؛ فليست كل طاقة مشتتة جريمة . وإذا كانوا يعتبرون اللغة والقانون والثقافة والحكومة هو تحويل الطاقة الخام إلى طاقة نافعة ؛ فهل هذا يعنى أن كل تحويل من هذا القبيل يتضمن ظواهر اللغة والقانون والحكومة وما إليها ؟ ويتساءل سوروكن أليس ثمة فرق بين تحويل الطاقة بصدد حرارة الشمس أو حركة الرياح ؛ وبين تلك بصدد الظواهر الثقافية والنظم الاجتماعية ؟ ؟ وكذلك : إنهم يعتبرون الثروة والنقود تكثيف للطاقة النافعة ؛ فهل يستتبع ذلك أن كل تكثيف للطاقة (كما فى طاقة البراكين) هو ثروة ونقود ؟[1] . .

وعلى هذا النحو فإن قوانين الميكانيكا وما إليها من العلوم الطبيعية لا يمكنها أن تفسر ببساطة حقائق الاجتماع وظواهره . بيد أن ما يقال فى هذا الصدد هو أنه من الممكن الاستفادة من المباحث الميكانيكية والطبيعية فى تقريب الحقائق الاجتماعية إلى الأذهان ؛ والانتفاع بمناهج هذه العلوم فى طرق التفكير الاجتماعى وتهذيب القوانين الاجتماعية .

خامساً ـ مدرسة الاجتماع البيولوجى

ذهب بعض الباحثين إلى أنهم يستطيعون فهم الظواهر الاجتماعية وتحليلها بوصفها ظواهر منبثقة عن كائنات حية . ومن ثم فهى فصيلة من ظواهر البيولوجيا . لا سيما وأن علم الحياة وإن اعتمد على مباحث الميكانيكا والطبيعة والكيمياء واستفاد منها فموضوعه أشد تعقيداً وقضاياه أكثر تركيباً ومباحثه أقوى لحمة بالظواهر الإنسانية . ومن ثم اجتذب علم البيولوجيا طائفة من المفكرين للاستفادة من نظرياته عند دراسة المجتمعات الإنسانية وتفهم ظواهرها . ويشكل هؤلاء بمختلف اتجاهاتهم الخاصة ما يمكن أن

(1) Sorokin; Contemporary Sociological Theories p. 33.

نسميه بمدرسة الاجتماع البيولوجى أو المدرسة العضوية الاجتماعية . وهذه المدرسة فى مجموعها تفسر المجتمع وطبيعته بالرجوع إلى القضايا والقوانين البيولوجية ومبادئ علم الحياة . فالمجتمع كائن عضوى أو مركب عضوى «Orgaanism» يشبه جسم الكائن الحى ويمثل مظهراً من مظاهر الحياة العامة ويسير وفق القوانين التى تسير عليها ظواهر الحياة . ويعقد أنصار هذه المدرسة مماثلة بين المجتمع وبين الجسم الحى من ناحية التركيب الداخلى . فكما أن الكائن الحى يتكون من أعضاء ولكل عضو وظيفة ، فكذلك المجتمع يتكون من عناصر (طبقات) وأفراد ولكل عنصر وظيفة يؤديها . والفرد فى المجتمع يشبه الخلية فى الجسم الحى ، والطبقات الاجتماعية تشبه الأعضاء ، والوظائف الاجتماعية تشبه الوظائف الحيوية . بمعنى أن وظيفة الحكومة تشبه وظيفة المخ والرأس ؛ ووظيفة الجهاز الاقتصادى تشبه وظيفة الدورة الدموية ؛ والثروة هى القلب الذى يوزع الحياة ويدفع الدم فى الشرايين ؛ والطبقات العاملة والأجيرة تقوم بالأعمال التى تقوم بها الأحشاء الداخلية والجهاز الإخراجى ويرى أصحاب هذه النظرية كذلك أن المجتمعات تخضع للقوانين نفسها التى تخضع لها الأجسام الحية مثل قوانين النمو والوراثة وتنازع البقاء والبقاء الأصلح .

فكأن هذه النظرية فى مجموعها ترتكز على الدعائم الآتية :

١ — المجتمع كائن حى عضوى بالمعنى البيولوجى .

٢ — لما كان المجتمع على هذا النحو ، فإن بناءه وتركيبه ووظائفه الأساسية تشبه بناء وتركيب ووظائف الكائن الحى .

٣ — ويترتب على ذلك أن المجتمع يخضع للقوانين البيولوجية التى تخضع لها ظواهر الحياة والكائنات الحية ؛ فى نشأتها وتطورها وعلاقاتها وتأديتها لوظائفها .

٤ — ومن ثم ، فإن علم الاجتماع إذا جاز قيامه ، فإنه لا يعتبر علماً مستقلا فى ذاته وإنما شعبة من علم الحياة العام .

وبالرغم من أن هذه المدرسة نمت وتطورت فى ظل تطور الفكر الاجتماعى الحديث ، غير أنها ظهرت فى صور متعددة عند مفكرين كثيرين باعد بينهم الزمن . . فنجد تشبيهات كثيرة ومماثلات بين المجتمع والكائن الحى فى فلسفة أفلاطون وأرسطو والمفكر الرومانى « أجريبا Agrippa » ونجد لمحات لهذا التمثيل عند مفكرى العرب ، فقد ورد فى الحديث الشريف « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا

اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » وكان الفارابي من أنصار هذا الاتجاه لا سيما فى نظريته عن رئيس المدينة ومنزلة هذا الرئيس فيها كمنزلة القلب من سائر أعضاء جسم الإنسان . وكان ابن خلدون بالرغم من وضعيته العلمية ، أكثر تورطاً فى تشبيهات حيوية . ولذلك أطلق عليه بعض المؤرخين «Vitalist» فقد ذكر أن المجتمع يولد كما يولد الفرد ويمر كما يمر الكائن الحى بأدوار الطفولة والشباب والكهولة ، والمجتمع جسم مركب والنظم والمؤسسات الموجودة فيه هى بمثابة أعضاء هذا الجسم . ومنها قوله : العاصمة هى قلب الدولة ومنها تتوزع الحياة على باقى الأقاليم ومثلها كمثل القلب الذى يدفع الدم إلى جميع أجزاء الجسم . ومنها نظريته فى تحديد أعمار الدولة ومقارنتها بأعمار الأفراد وغير ذلك من التشبيهات التى ساقها ابن خلدون فى ثنايا دراساته الاجتماعية .

وفى العصر الحديث قويت هذه المدرسة ولا سيما منذ أن نشر دارون فلسفته ولذلك فإن معظم أنصار هذه المدرسة هم تلاميذ دارون وأتباع فلسفته والمعجبون بنظرياته وتحليلاته : نجد فى روسيا باكونين وكروبتكين ونوفيكوف ، وفى ألمانيا شافل وليلنفلد ، وفى فرنسا سبينياس وورمس ، وفى إنجلترا هربرت سبنسر ومدرسته .

ويهمنا فى هذه الفقرة أن نشير إلى أن هذا المذهب الحيوى اقتحم فرنسا معقل علم الاجتماع الوضعى وسيطر على طائفة غير يسيرة من المفكرين المشتغلين بالدراسات الاجتماعية . وأهم من حمل لواءه (كما سبق الإشارة) عالمان هما « ألفرد سبيناس A. Espinas » ١٨٤٤ — ١٩٢٢ » و« رينيه ورمس «R. WOrnis» ١٨٦٧ — ١٩٢٦ » .

آمن (سبيناس) بصحة القضايا التى أشرنا إليها جملة وتفصيلا ودافع عنها واعتبر نفسه ممثلا للنظرية الحيوية فى فرنسا . ودرس فى كتابه « المجتمعات الحيوانية»[1] الكائن الحى واعتبره فى ذاته مجتمعاً باعتبار أنه مكون من مجموعة من الخلايا والنسج والأعضاء . وفى ضوء الاعتبار ذاته نسمى المجتمع مركباً حيوياً . وحلل الأشكال المختلفة للتجمعات التى يصادفها الإنسان فى عالم الحياة مبتدئا من الطفيليات حتى التجمعات الإنسانية الراقية .

ومن الطبيعى أن يصل فى مطاف هذا التدرج إلى التمييز بين التجمعات التى لا ترتبط

(1) A. Espinas; Les Sociétée Animales.

فيها الظواهر الصادرة عنها بشعور أفرادها ، وبين التجمعات التى تصدر ظواهرها عن شعور أفرادها وبصفة نهائية . وقرر أنه فى مثل هذه التجمعات يوجد ارتباط غائى بين الأفراد والظواهر الصادرة عنهم . وأكثر من ذلك توجد فى هذه التجمعات ذاتية بين شخصية التجمع وبين الظواهر الصادرة عن أفراده « Identité des représentations » وهذا التقرير من جانبه يكفى لتأييد وجود مانسميه بالشعور المشترك أو الشعور الجمعى (عقل الجماعة) وبذلك يكون (سبيناس) قد انتهى عن طريق تحليله هو ، إلى تقرير ذاتية الحياة الاجتماعية من حيث أنكر قبلا هذه الذاتية واعتبرها مجرد مظهر من مظاهر حياة المركب العضوى .

ولذلك نراه فى كتابه الثانى « كائن أو لا كائن »[1] يقرر بوضوح أن علم الاجتماع لا بد أن يقوم على مبدأ جوهرى ينبغى التسليم به وهو أن المجتمعات البشرية عبارة عن حقائق طبيعية كائنة بالفعل ويخضع لقوانين خاصة كغيرها من موضوعات الطبيعة الأخرى .

وهذا الاتجاه يدل على تطور مذهبه . إذ يبدو أن تعمقه فى تحليل الحقائق الاجتماعية اضطره إلى أن يتخلى عن تعصبه للمذهب الحيوى ؛ وقد وضح هذا التطور بصورة لا يرقى إليها الشك فى كتابه الثالث « أصول التكنولوجيا »[2] فقد درس بعض مظاهر الحياة الاجتماعية وبرهن على أهمية العادات والعرف والتقاليد واعتبرها من أهم مقومات التراث الاجتماعى وهى التى يتم بفضلها نقل أفكارنا وأفعالنا وتراثنا فى قوالب محددة عبر الأجيال . فهى فى نظره وسائل المواصلات الاجتماعية . وانتهى فى هذا الكتاب وهو بصدد تحليل طبيعة الحياة الاجتماعية إلى تقرير نوعية ظواهر الاجتماع ، وأن هذا الاجتماع يرتكز فى نهاية تحليله إلى أساس عقلى ، فهو عقل حى كبير . ومن العجيب أن ينتهى (سبيناس) إلى هذه النتائج التى تقترب إلى حد كبير من فلسفة أوجست كونت ودوركايم . وفى ضوء هذه الاعتبارات نستطيع أن نقرر أن (سبيناس) بدأ بيولوجيًا وانتهى إلى ما يقربه من أنصار المدرسة الاجتماعية .

وهذا التطور الذى لاحظناه على أفكار (سبيناس) نلاحظه بصورة واضحة عند دراسة نظريات العلامة (رنيه ورمس) فقد أيد بحرارة النظرية العضوية فى كتابه « المركب

---

(1) A. Espinas; Etre ou n'est pas être.

(2) A. Espinas; Origines de la Technologie.

العضوى والمجتمع »[١] حيث قرر أن حالة الاجتماع ليست سوى مظهر من مظاهر الحياة العامة «Le Social est on aspect de vivant» .

غير أنه فى كتابيه « فلسفة العلوم الاجتماعية »[٢] و « علم الاجتماع[٣] » قرر أن الروابط العضوية فى المجتمع ، وهى الروابط التى تنشأ بين الأفراد فى حالة الاجتماع تمتاز بعناصر جديدة من طبيعة نفسية لدرجة تجعلنا نؤمن بأن علم الاجتماع لا يمكن أن يكون امتداداً بسيطاً لعلم الحياة أو فرعاً من هذا العلم ، بل ينبغى التسليم بأنه من الممكن أن تكون له شخصية مميزة فى ذاتها تجعل منه علماً مستقلا عن علم الحياة .

وبجانب (سبيناس وورمس) نخص بالذكر بحوث المفكر (سدوا كجلون Suedois R. Kjellon » الذى تأثر بهذا الاتجاه البيولوجى فى بحوثه السياسية . فى كتابه « الدولة بوصفها شكلا حيًّا »[٤] درس الدولة كما يدرس الفرد فى أعضائه ووظائفه واعتبرها فرداً كبيراً . وهى فى نظره قوة ذاتية تحيا لنفسها وتسعى لأغراض مستقلة عن أغراض أفرادها . ويعيد هذا الكتاب للأذهان الأفكار التى أثارها الفيلسوف الإنجليزى « هوبز » فى كتابه «Leviathan» الذى كان يرمى من وراثه إلى تأليه الدولة وتأييد الاستبداد . وتعتبر بحوث « كجلون » دراسات ممهدة فى الجغرافية السياسية «Geopolitique» وفى دراسة نظريات القوة والقومية التى ظهرت بوضوح فى الفلسفة الألمانية .

هذا ملخص لأبرز آراء الشعبة الفرنسية من أنصار المدرسة البيولوجية . ولنا عود لمناقشة هذه المدرسة ونقدها عند الكلام عن « هربرت سبنسر » حيث يعتبر رائدها الأول .

سادساً ـ مدرسة علم الاجتماع الحيوانى

تفرعت عن المدرسة البيولوجية مدرسة تابعة هى مدرسة علم الاجتماع الحيوانى «Zoosociologie» وهى تنظر إلى المجتمع البشرى نظرتها إلى المجتمع الحيوانى . فما دام المجتمع هو جسم حى كبير ويخضع لقوانين الحياة العامة ، فإن هذا الوصف

(1) R. Worms; Organisme et Société.

(2) R. Worms; Philosophe des Sciences Sociales.

(3) R. Worms; Sociologie.

(4) S. Kjellon : L'Etat Comme forme vitale

ينطبق على عالم الحيوان مثلما ينطبق على مجتمعات البشر .

وأخذت هذه المدرسة تدرس المشابهات والمقارنات بين المجتمعين وتحاول التقريب بين الدعائم التى يقومان عليها والوظائف التى يؤديانها والترابطات المتبادلة بينهما .

وقد وضح هذا الاتجاه فى كتاب العلامة « ادموند بريبه » «Edmond Perrier» المستعمرات الحيوانية «Les Colonies Animales» وفى كتاب العلامة « جيرود Girod » المجتمعات الحيوانية «Les Sociétés Animales» .

وقد تعرضت هذه المدرسة لهجوم شديد من جانب علماء الاجتماع والدراسات الإنسانية لأن التجمعات الحيوانية إنما تقوم على مجرد الارتباط الفزيولوجى والدوافع الغريزية والفطرية الأولى والالتصاق المادى وتنعدم فيها المشاعر والأحاسيس الراقية والتقدير العاقل ولا يحكم أفعالها وتصرفاتها فكر أو منطق وهذه الأمور من أخص خصائص مجتمعات البشر

ويبدو أن بعض النزعات الفطرية التى تأصلت فى مجتمعى الحيوان والإنسان هى التى أغرت بعض الباحثين ودفعتهم إلى تحليل الكثير من ظواهر الاجتماع البشرى فى ضوء النزعات والفطر الملحوظة فى عالم الحيوان ومملكة الحشرات الراقية . وأهم هذه النزعات ما يأتى :

١ — نزعة التجمع أو التكتل أو الحياة فى جماعة . وهذه النزعة ملحوظة عند فصائل حيوانية كثيرة وفى ممالك النمل والنحل . وتشتد هذه النزعة فى فصول خاصة من السنة أو فى مناسبات معينة ولا سيما فى دورات التجاذب الزواجى والهجرة الجماعية من مكان لآخر . وقد نجم عن هذه النزعة واتصلت بها نزعات أخرى تمارس إراديًّا . ومن ذلك نزعة توزيع العمل بين أفراد المجتمع الحيوانى ، وتقسيمه إلى طوائف تقوم كل طائفة فيها بعمل خاص تتوقف عليه الجماعة أو بقاء نوعها أو استقرار نظامها كما هو الشأن فى حياة طوائف النحل والنمل وما إليهما . ومن ذلك أيضاً النزعة إلى قيام سلطة مركزية (نظام حكومى) والخضوع لرائد أو رئيس كما نجد ذلك فى قطعان الظبى والأوعال والدجاج . ومن ذلك أيضاً الإصلاح فطريًّا على أداة للتفاهم بها بين أفراد المجتمع الحيوانى . فقد ثبت أن كثيراً من الفصائل تستخدم بعض إشارات جسمية للتعبير بها عن بعض شئونها كما هو ملحوظ فى الأوامر التى يصدرها قائد القطيع وعند الفصائل العليا من القردة .

٢ – نزعة الاسترقاق أو الاستعباد أو تسخير الغير . فبعض فصائل النمل تسرق فصائل أخرى وتعتمد عليها فى معاشها بحيث إذا انقرضت طبقة الشغالة (المسترقة) لم تستطع طبقة الأسياد أن تطعم نفسها وتهلك جوعا .

٣ – نزعة الخضوع للغير . وقد رسخت جذور هذه النزعة عند معظم الحيوانات التى استأنسها الإنسان وسخرها فى قضاء حاجاته .

٤ – نزعة إيواء الغير واستضافته . وشبيه بها نزعة التطفل والاعتماد على الغير . فكثير من الطيور تضع بيضها فى أعشاش غيرها وتتحرر من عبء حضانته وتربية صغارها . وهذه النزعة مرتبطة بظواهر حيوية أخرى . فقد ثبت أن مثل هذه الفصائل تهاجر بعد وضع بيضها . فلو مكثت لاحتضان البيض لعاقها ذلك عن الهجرة . وترتبط هذه النزعة كذلك بظاهرة التدافع الملحوظة عند بعض فصائل الحشرات والطيور .

٥ – توجد نزعات فطرية راقية عند بعض الفصائل مثل التعايش والتكافل والتنادم (التآخى) المساكنة وتكوين الحشود وما إلى ذلك من الظواهر المألوفة فى عالم الإنسان .

٦ – النزعة الجنسية وهى تتمثل فى ميل فطرى إلى التزاوج فى فصول معينة من السنة أو تحت تأثير حالات جسمية وفسيولوجية كامنة فى طبيعة تكوين الكائن الحى . وتتلخص النزعة الجنسية فى عمليتى التلقيح والإخصاب . وما يتصل بهما من أمور تكفل تناسل النوع وتحفظ بقاءه . وتختلف الوسائل الفطرية التى تلجأ إليها فصائل الحيوانات فى هذا السبيل اختلافاً كبيراً ولكنها ترجع جميعاً إلى طريقتين :

الأولى : هى التلقيح داخل الجسم كما هو الشأن عند الإنسان والفصائل الحيوانية العليا ؛ والثانية : وهى طريقة التلقيح خارج الجسم وهى ملحوظة عند معظم الحيوانات المائية (حيث تلقى الأنثى ببيضها ويلقى الذكر بسائله المنوى ويتولى تيار الماء عملية الإيصال الجنسى).

٧ – نزعة تعهد البيض وحضانته . وتبدو هذه النزعة قوية عند الإناث . فهى التى تقوم بأعباء هذه الحضانة . وقد لوحظ فى بعض الفصائل أن الذكور قد تقوم بهذه الظاهرة (كما هو عند النعام) وعند فصائل أخرى يتقاسم الذكور والإناث هذه العملية . وترتبط بهذه النزعة ؛ تربية الصغار وتعهدها وتنشئتها والقيام على شئونها حتى يصلب عودها وتستطيع الاعتماد على نفسها . ويقوم الأب والأم بأعباء هذه الوظائف . وقد لوحظ

فى بعض الفصائل (من الحشرات والطيور) أن العقيمات يقمن بذلك بينما ينصرف المنتجون إلى التزاوج من جديد .

٨ — وترتبط بالنزعات الجنسية وحضانة الصغار ؛ انزعات أخرى كالغزل والإغواء والإغراء والحب وما إلى ذلك من النزعات الجديرة بالدراسة والتى تصلح لتكون مادة لمباحث فى « علم النفس الحيوانى » .

٩ — نزعة الادخار والتوفير إما لظروف طبيعية أو اقتصادية . فقد لوحظ فى معظم فصائل الحشرات التى تبنى خلايا منظمة أنها تحتجز فيها خلية تملؤها بالمواد الغذائية وما تحتاج إليه وتسد عليها ولا تثقبها إلا فى أقسى ظروفها الطبيعية أو المعيشية . وهذا يدل على أن مثل هذه الفصائل مزودة (شأن الإنسان) بنزعات تنظيمية واقتصادية وأن تصرفاتها تنطوى على التدبير والتخطيط والتطلع .

هذه هى أهم الظواهر الاجتماعية الفطرية التى تلاحظها فى عالم الحيوان والطيور والحشرات والتى أغرت بعض علماء البيولوجيا (وخاصة علماء علم الحيوان والنبات) فعقدوا مقارنات ومشابهات كثيرة ولجأوا فى تعسف إلى التقريب بين الفطر الحيوانية والظواهر البشرية ؛ وقاموا بتحليل كثير من ظواهر الاجتماع محاولين الرجوع بها إلى أصولها الفطرية والغريزية فى عالم الحيوان . ولكن شتان بين العالمين . فقد انفرد الإنسان بالعقل والإرادة الواعية ، واختص بالتفكير والروية والتدبير والمشاعر وما ينسب إلى الإنسان من فطرة ووراثة حيوانية فقد قطع شوطاً بعيد المدى فى التطور والتهذيب والإعلاء فضلا عن أن نطاق هذا القدر قد ضاق وضؤل . فلا سبيل إلى تجاهل الفروق الجوهرية والكيفية بين عالم الإنسان وعالم الحيوان ولا نستطيع أن نتخطى بسهولة السببية والغائية والحرية والإرادية حتى نقرب بكل بساطة بين العالمين .

حقاً إن دراسة الاجتماع الحيوانى تقدم لنا معلومات وحقائق تمهيدنا فى دراسة الاجتماع الإنسانى ؛ ولكن ينبغى التسليم قبلا بأنهما من طبيعتين مختلفتين جوهرياً ولكل طبيعة منهما خصائصها ومقوماتها[1] .

---

(١) اقرأ فى هذا الموضوع : النزعات الاجتماعية الفطرية عند الحيوان للأستاذ الدكتور على عبد الواحد . الحياة الاجتماعية عند الحيوان للأستاذ الدكتور عز الدين فراج .

Buehner : La Vie Psychique des Bêtes.

Espinas Des Sociétécs Animales.

سابعاً ـ مدارس اجتماعية تطبيقية

أدركت طائفة كبيرة من علماء الاجتماع فى فرنسا ضرورة الانتفاع بحقائق علم الاجتماع فى إصلاح شئون المجتمع ومحاولة الارتقاء بنظمه ومستوياته وقد أدى ذلك إلى قيام مدارس تطبيقية كثيرة أهمها :

مدرسة العلامة لبلاى Le Play :

يعتبر « لبلاى » من المفكرين الأوائل الذين أدركوا قيمة البحث الاجتماعى العلمى ومبلغ الاستفادة من نتائجه فى ميدان الإصلاح الاجتماعى . فلم يشأ أن يدخل فى الخصومات أو المساجلات المتعلقة بالدراسات النظرية والمقومات الفلسفية لعلم الاجتماع . ولكنه آثر أن يتجه إلى العمل المباشر فى الميدان الاجتماعى ليدرس ويبحث ويكشف عن علل المجتمع ويصف ما يراه محققاً للقضاء عليها . لا سيما وأن حالة المجتمع الفرنسى فى زمانه ما كانت لتحتمل التأخير والتسويف ؛ وما كانت لتحتمل الإغراق فى المناقشات الفلسفية . فما أن أعلن العلماء وخاصة أوجست كونت عن ضرورة دراسة حقائق الاجتماع دراسة علمية كمقدمة طبيعية لأية حركة إصلاحية ؛ حتى آثر أن يخدم الناحية التطبيقية مستعيناً فى ذلك بالحقائق التى يصل إليها العلماء النظريون . ولذلك فإن مدرسته تمثل اتجاها مغايراً للاتجاهات المعروفة فى زمانه فهى مدرسة علمية تطبيقية ترتكز على البحوث والتجارب والتحقيقات الاجتماعية أكثر من قيامها على الآراء والأفكار النظرية . وتعتبر هذه المدرسة أول مدرسة وضعت فى فرنسا دعائم الاجتماع التطبيقى والتجريبى .

نشر « لبلاى » عام ١٨٥٥ كتابا سماه « العمال فى أوربا » درس فيه أحوال معيشتهم ومستويات دخولهم الفردية ومظاهر البؤس والفاقة التى تهددهم . وقام فى هذا الصدد بتحقيقات مبنية على الطريقة الإحصائية العلمية . فبحث ٣٦ حالة تمثل مختلف طوائف العمال فى القارة الأوربية وتناول فى بحثه موضوعات كثيرة أهمها : تاريخ الأسرة ؛ العادات والتقاليد والدين ؛ العمل الذى تزاوله ؛ الدخل ومظاهره (ملكية ، أجور ، مرتبات ، مساعدات) ؛ نظام السكن وأثاث المنزل ؛ مستويات المعيشة ؛ الناحية الترفيهية ، الديون . وجاءت هذه التحقيقات صورة واضحة عن ميزانية الأسرة العمالية فى أوربا :

وقد قسم هذه الميزانية إلى بابين : باب الإيرادات ويشمل ريع الأملاك ودخل رأس المال والأجور والمساعدات الأهلية والحكومية . وباب المصروفات ويشمل الغذاء والمسكن والملبس والشئون الصحية والترفيهية ثم بند الضرائب والتأمينات والديون .

ونجح « لبلاى » فى تصوير بعض جوانب الموضوع الذى درسه . وانتهى من تحقيقاته الاجتماعية إلى تقرير الوسائل التى ينبغى الالتجاء إليها لتحسين حالة العمال واقترح فى هذا الصدد بعض المشروعات التى تتسم بالصفة الاشتراكية مثل تنظيم الاتحادات والنقابات وجمعيات المنتجين والمستهلكين والجمعيات والمصارف التعاونية والعمل على تقوية روح التضامن بين مختلف طوائف العمال وتعزيز الوسائل التى بفضلها يتم القضاء على البطالة .

وقد توسع « لبلاى » فى دراسة هذه المشروعات الإصلاحية فى كتاب آخر نشره فى عام ١٨٨٧ فى ثلاثة أجزاء عنوانه « الإصلاح الاجتماعى فى فرنسا La Reforme Sociale en France » وفى هذا الكتاب اتجه لبلاى إلى تأييد المذهب الفردى ولم يسرف فى الاتجاه نحو المعسكر الاشتراكى . وضغط فى دراساته على نظام الأسرة واعتبرها الوحدة الاجتماعية الجديرة بالدراسة والبحث . وقسم نظم الأسرة إلى ثلاثة أقسام :

١ ــ العائلة الكبيرة «Patriarcale» وهى التى تتكون من الأب والأم والأولاد المباشرين وذريتهم . وتنحصر السلطة فى رئيس الأسرة وحده وتؤول من بعد وفاته إلى أكبر أولاده . وينتشر هذا النظام الأسرى فى بلاد الشرق وفى الشعوب السلافية الضاربة فى أواسط أوربا وروسيا .

٢ ــ العائلة الثابتة المستقرة «Souche» وهى الأسرة الزوجية ضيقة النطاق التى تختار أحد أولادها ليكون رئيساً لها بعد وفاة الأب . وهذا النظام كثير الانتشار فى إنجلترا وفرنسا .

٣ ــ العائلة غير المستقرة (غير الثابتة Instable) وهى الأسرة التى يهجرها أولادها متى أمكنهم كسب معاشهم ، ويغلب وجود هذا النظام فى المجتمعات الصناعية وبين الشعوب الراغبة فى الهجرة الخارجية .

وفضل « لبلاى » النظام الثانى : الأسرة المستقرة الثابتة ؛ لأنه يضمن تحقيق

سعادة الأفراد ويساعد على النظام والاستقرار ويساعد كذلك على تقوية السلطة المركزية . ومما دعاه إلى تفضيل هذا النظام أنه كان شديد الرغبة فى أن يسترد الآباء ما كان لهم قديماً من مظاهر الاحترام والنفوذ والسلطة على جميع أفراد العائلة . وقد فقد الآباء هذه الامتيازات الخاصة بعد الثورة الفرنسية ، وأجهزت عليها التيارات الفردية والاتجاهات الانتهازية والنزعات الشكية والأفكار التقديرية مما كان له أسوأ الأثر فى تفكك الروابط العائلية وتحللها . ويرى « لبلاى » أنه لا يمكن لآباء الأسر استرداد ما فقدوه من امتيازات إلا إذا تغيرت القوانين القائمة المنظمة للوراثة فى الأسرة . لأن الذى يحدث الآن بعد وفاة عميد الأسرة ، هو حصول كل فرد فيها على نصيبه فى الميراث ومحاولة الاستقلال بشئونه . فيهجر الواحد منهم بعد الآخر منزل العائلة تاركين وراءهم الأرامل واليتامى وذوى الأرحام بدون عناية تستحق الذكر . وعن هذا الطريق تتحلل الروابط والعلاقات الأسرية وتتفكك عرى الاتحاد بين عناصرها ويضعف التضامن وتجف المشاركات الوجدانية والعواطف المتبادلة بينهم إذ يندر أن يجتمعوا أو يتلاقوا لا فى أدق المناسبات . ويرى « لبلاى » علاجاً لهذه لظاهرة الخطيرة أن يسترد آباء الأسرة ما كان لهم قديماً من حق حرية التصرف المطلق فى الثروات الخاصة . فيصبح من حقه تقسيمها بالطريقة التى يراها مناسبة لتوثيق الروابط التى تجمع بين أفراد العائلة . وبذلك يضمن بقاء جميع الفروع فى حظيرة الأسرة . وضغط « لبلاى » فى نتائجه على وظيفة الأسرة التربوية من أدق الأمور التى تؤدى إلى تدعيم الهيئة الاجتماعية وإرساء النظام فى الأسرة والدولة على أسس قويمة . وكان يردد دائماً قوله : إن كل جيل شبيه بجيش من صغار البرابرة . . فإذا أهمل الآباء تربية أبنائهم وفلت من أيديهم قيادة زمامهم انحط المجتمع وتخلف عن ركب التقدم والتحضر » وألمع « لبلاى » إلى ضرورة تدخل الحكومة ودعا إلى الثقة بها وتعزيز احترامها والخضوع لأوامرها لأنها مركز الضبط الاجتماعى وبفضلها تصل الخدمات الاجتماعية العامة لأكبر عدد ممكن من الشعب . غير أنه كان حذراً فى الدعوة إلى تدخلها . وهذا الحذر نتيجة طبيعية لاتجاهاته الاشتراكية التى وضحت فى مؤلفاته الأولى .

ويمكننا أن نقول أن بحوث « لبلاى » تدور حول فكرتين أساسيتين ركز فيهما مجهوداته وهما :

١ – ضرورة البدء بإصلاح نظم الأسرة لأنها المجتمع الصغير والوحدة الاجتماعية التى لا يمكن أن تتجزأ وهى التى تعكس لنا مستويات الدولة : المستويات المعيشية ، والمعايير الأخلاقية ومبلغ التضامن والوحدة القومية . ووضع « لبلاى » بصدد دراسة نظم الأسرة طرقاً علمية وعملية تؤدى إلى كشف النقاب عن المشاكل التى تعانيها . واستطاع فى ضوء مناهجه الوصول إلى قضايا عامة أفادت ميدان البحث الاجتماعى ونبهت المسئولين إلى ما ينبغى عمله فى الوقت المناسب . وقد ارتفع « لبلاى » بفضل ذلك إلى « رائد حركة الإصلاح فى فرنسا » وصاحب مدرسة جديدة لها اتجاه خاص فى ميدان الدراسات الاجتماعية .

٢ – ضرورة تدخل الحكومة للقيام بالإصلاحات الاجتماعية والإشراف على توجيهها سواء فى الأسرة أو فى المصنع . وكان يرى أن النهوض بالأسرة يساعد الحكومة على أداء مهمتها لأن تقوية روح التضامن وإيقاظ الشعور الجمعى وتعزيز المشاركات الوجدانية يزيد من احترام الأفراد للحكومة ويقوى ثقتهم فيها .

وبالرغم من الجدة والطرافة التى تمتاز بها بحوث لبلاى ، غير أنها لا تخلو من ضعف وقصور نظراً لأنه لم يتحر الدقة فى العينات التى اتخذها أساسا لدراساته . وظن أنها ممثلة لحالة العمال وانتهى منها إلى أحكام عامة . وغنى عن البيان أن هذه الأحكام مصابة بالطفرة إلى التعميم ولا يمكن تطبيقها إلا على الحالات التى استنبطت منها . ثم إن اقتصاره على بعض طوائف العمال ضيق من نطاق استقراءاته لأن طبقة العمال ليست إلا طبقة وإحدة من طبقات المجتمع . فبحوثه على هذا النحو لا تخدم إلا مصلحة طبقية .

هذا ، وقد صادف منهج لبلاى وطرق بحثه تقديراً واسع النطاق من جانب الهيئات العلمية المشتغلة بالشئون الاجتماعية فى داخل فرنسا وخارجها وتأثرت بها مدارس كثيرة فى مختلف البلاد سنشير إليها فى موضعها . وكان لهذه المدرسة دعائم الفضل فى تنبيه الأذهان إلى أهمية دراسة الاجتماع التطبيقى وضرورة ابتكار مناهج بحث تتفق والمطالب العملية فى الميدان الاجتماعى .

أتباع لبلاى : ويجدر بنا أن نشير إلى أن أتباع « لبلاى » انقسموا بعد وفاته إلى فريقين ، وأطلق الفريق الأول على نفسه « أصحاب مذهب الإصلاح الاجتماعى » وكان من أكبر أنصاره « كيوديوجانيه Claudio Jannet » و « دى ربب De Ribbe » ولم يخرج هذا الفريق عن تعاليم أستاذه . وأما الفريق الثانى فأطلق على

نفسه « مدرسة العلم الاجتماعى » وكان على رأسه « دى مولان De Moulins » و « دى تروفيل De Trouville » ويختلف هذا الفريق عن السابق فى أنه لم يقبل الإسراف فى الاتجاه العملى وخدمة المطالب التطبيقية . وعاب على أستاذه « لبلاى » عدم التعمق فى الدراسة النظرية والوصول إلى علم اجتماع وضعى « Science Positive » على غرار أوجست كونت . وعابوا عليه آراءه فى « إعادة الوحدة الأسرية القديمة » لأن تحلل هذه الروابط القبلية إنما هو نتيجة طبيعية لروح الحضارة المعاصرة التى تتطلب الجهاد ومصاوعة الظروف الاجتماعية حبًّا فى الحياة ، فكأن هذا الفريق أيد المذهب الفردى ونظرية تنازع البقاء « Lutte pour la vie » وانحرف انحرافاً ظاهراً عن تعاليم الأستاذ .

ثامناً ـ مدرسة الاجتماع الوصفى

تعنى هذه المدرسة بجمع الحقائق الاجتماعية المادية للاستفادة منها فى استخلاص قوانين عامة للنظم والظواهر الاجتماعية . وتكاد هذه المدرسة تشبه المدرسة الأنثروبولوجية فى المنهج العام . ولكنها تختلف عنها فى طرق البحث الخاصة ، وفى الغايات التى ترمى إليها . فإن كلا المدرستين يلجأ إلى جمع الحقائق والبيانات الاجتماعية ؛ غير أن دراسات المدرسة الأنثروبولوجية مقصورة على الشعوب المتأخرة الممثلة للحالة البدائية منذ فجر الإنسانية وغرضها كشف أصول النظم الاجتماعية ورفع النقاب عن الطرق التى سلكتها فى تطورها . أما هذه المدرسة فإنها تدرس المجتمعات المعاصرة وتصف ظواهرها الاجتماعية للاستفادة من ذلك فى عمل المقارنات الاجتماعية واستخلاص قوانين اجتماعية تمتاز بالعمومية . وقام كثير من أنصارها بتحقيقات ومسوح اجتماعية « Social Surveys » ترمى من ورائها إلى إصلاح ومعالجة بعض الظواهر الاجتماعية غير السوية . وقد أفادت دراساتهم ميدان البحث الاجتماعى فضلا عن أنها نبهت ذوى الشأن إلى ما ينبغى اتخاذه بصدد الانحرافات القائمة والاتجاهات السائدة . وأشهر علماء هذه المدرسة :

١ ـ أندريه فيليب (André Philip) وقام ببحوث عن المشكلة العمالية فى الولايات المتحدة [1] .

---

(1) A. Philip; Le Problème Ouvrier aux Etats-Unis.

٢ – أندريه سيجفرد (Andre Siegfried) قام ببحوث عن الحالة الاجتماعية فى الولايات المتحدة فى العصر الحديث[١] .

٣ – أساتذة كلية فرنسا « Collége de France » فى دراساتهم للآراء السياسية السائدة وتوزيعها المورفولوجى ومبلغ تأثيرها فى الرأى العام الفرنسى[٢] . وأشهرهم (كالوا Roger Callois وباتاى «Georges Bataille» وليريس «Michel Leiris») .

٤ – دراسات المفكر « لبراس Le Bras » فى كتابه « التجربة الدينية فى فرنسا »[٣] فقد أولى مزيد اهتمامه لدراسة الميول الدينية ومدى انتشارها ومبلغ تأثيرها على سلوك الأفراد ودرس اتجاهات الرأى العام وقياس العلاقة بين الدين والآراء السياسية ومبلغ التفاعل بينهما . وقد أعطت بحوثه الفرصة لقيام مبحث اجتماعى جديد هو علم الاجتماع الانتخابى La Sociologie Electorale .

تاسعاً – هيئات علمية

وبجانب المدارس التى ذكرناها يجدر بنا أن نشير إلى البحوث والدراسات التى تقوم بها الهيئات العلمية الاجتماعية فى فرنسا وأهمها :

١ – المجتمع الفرنسى «La Communauté Française» وهى جمعية أسسها العالم الفرنسى . فرنسوا برو «François Perroux» وقد قدم أعضاء هذه الجمعية بحوثاً كثيرة تعالج موضوعات اجتماعية واقتصادية ودينية ونشروها فى كتيبات صغيرة أطلقوا عليها اسم « كراسات Cahiers » . وهذه المجموعات تعرف باسم كراسات أو كتيبات حول بحوث اجتماعية «Les Cahiers des Etudes Communautaires» .

٢ – مركز أو جمعية دراسة مشكلات الإنسان « Centre d'Etude des Problèmes humains» أنشأت حكومة فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية هذه الجمعية ، وضمت إليها طائفة غير يسيرة من المتخصصين وأصحاب الكفايات الممتازة وذلك للرقى بالعلوم الإنسانية ولا سيما المسائل المتعلقة بشئون السياسة والاقتصاد والاجتماع .

---

(1) A. Siegfried : Les Etats-Unis d'aujourd'hui.

(2) Tableau Politique de la France de l'Ouest.

(3) Le Bras : La Pratique Religieuse en France.

وسار أنصار هذه الجمعية فى دراساتهم على الطريقة الأمريكية فى دراسة المجتمع المحلى والوقوف على احتياجات البيئة وبحث الحالات التى تتطلب المعونة الفنية العاجلة . وكان أبرز رجال هذه الجماعة « كوترو Jean Coutrot » و « دى شارنى De Charnay » .

٣ – كلية الاجتماع «Collège de Sociologie» ويعمل أعضاؤها فى مجموعات أو شعب لدراسة موضوع معين Travail en equipe واهتم هؤلاء بمعالجة النزعات الفردية والانتهازية التى أخذت فى النمو والازدياد إبان الحرب العالمية الثانية ، واتجهوا فى بحوثهم إلى الكشف عن دوافع الحرب والأسباب العميقة التى ترجع إليها الثورات السياسية والاجتماعية ، ودعوا إلى تعزيز المشاركات الوجدانية والناحية الروحية فى المجتمع ، ورسموا برامج واسعة النطاق لأعمال الإنعاش والرعاية الاجتماعية فى ضوء ما يقومون به من مسوح وتحقيقات اجتماعية .

عاشراً – مدرسة جورفتش

ولا يمكننا ونحن فى معرض الحديث عن المدارس الاجتماعية الفرنسية أن نغفل دراسات العالم الكبير جورج جورفتش G.Gurvitch . الذى يسيطر الآن على علم الاجتماع النظرى فى فرنسا ويوجه الحركة الاجتماعية العلمية فيها وفى الولايات المتحدة ويسهم فى كثير من المؤتمرات والحلقات الاجتماعية العالمية .

اهتم هذا المفكر بالاجتماع العام والاجتماع القانونى وكتب فى هذين الموضوعين مراجع ضخمة تمتاز بالدقة وعمق التحليل وحسن العرض ولا تخلو من بعض وجوه فى التفكير وأهمها :

1. Essais de Sociologie.
2. Eléments de Sociologie Juridique.
3. La Déclaration des Droits Sociaux
4. Sociologie du Vingtième Siècle (+ Moore).

والعلامة جورفتش روسى الأصل والنشأة والتكوين العلمى . حصل على درجاته

الجامعية فى روسيا وشغل فى جامعاتها وظيفة أستاذ الاجتماع المساعد . واشتغل بالتدريس فى جامعات تشيكوسلوفاكيا . ثم هاجر إلى فرنسا حيث منح الدكتوراه من السوربون ومنح الجنسية الفرنسية كذلك . وعين أستاذاً بجامعات السوربون وبوردو واستراسبورج . وفى أثناء الحرب العالمية الأخيرة فر إلى أمريكا حيث درس فى كثير من جامعاتها وأشرف على تحرير بعض المجلات العلمية الأكاديمية ولا سيما صحيفة الاجتماع القانونى والسياسى .

وغنى عن البيان أن وقوفه على هذه الثقافات المختلفة وتأثره بهذه الأجواء العلمية المتباينة ، قد رسب فى تفكيره فجاءت بحوثه تمثل مختلف الاتجاهات فى علم الاجتماع . فنجد أنه تأثر ببحوث الفوضويين والاشتراكيين أمثال بردهون وباكونين . وهذا التأثير صدى مباشر لثقافته ونشأته العلمية الأولى . ونجد مبلغ تأثره بفلسفة الظواهر «Phénoménologie» التى كانت منتشرة فى ألمانيا وروسيا . وهى فلسفة واقعية تقوم على دراسة الظواهر كما تبدو فى الشعور وفى الواقع ؛ فهى تجمع بين الموضوعية والإدراك الذاتى . ونجد فوق ذلك نزعته نحو تحقيق التكامل فى ميدان الدراسات الاجتماعية وكلية البحث الاجتماعى «Pluralisme Sociologique» وهذه النزعة هى الصفة المميزة للمدرسة الاجتماعية الفرنسية المعاصرة[1] .

(1) Cuvillier Manuel de Sociologie, Tome I, 1950.